محمد فهمي عبد الحميد

أسود ولا أريد

obeikandl.com

محمد فهمي عبد الحميد

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــداء

إلى أبي: شكر وولاء؟

obeikandl.com

كلمـــة المؤلف

أشواك الورد تدمى الأنامل ،
وتخدش الشفاه ، وتجرح الخدود ،
وعبير الورد ينعش الأفئدة ، ويبهج
الأنفس ويسعد الأرواح .

وفى هـذا الـكتاب ، مزيج
من اللذة والألم مثلما فى الورود
وأشواكها .

obeikandl.com

عابد الخيال

... لماذا تشوه من جمال الحقيقة أيها الانسان ،
إنها جميلة زاهية ..! لكنها تبدو لك قبيحة منفرة ،
لأنك أنت الذى أفسدت رواءها وبهجتها ...

حكى أن غلاماً يافعاً أحب الشعر وترنّم به وأرسله ولما أدرك أن الخيال هو مصباح الشاعر الذى يضىء له الطريق ويكشف أمامه السبيل إلى الصور الجميلة والمعانى العذبة فقد وطد العزم على البحث عن الخيال ـ مهما كلفه ذلك ـ ليحظى بهذا النعيم .

وخرج إلى الربى والوديان باحثاً منقباً ، حتى كان ذات صباح من أيام الربيع السعيدة ، انتشر فيه أريج الأزهار المتفتحة ، ورفرف الأمل فوق الأرض بأجنحته الحريرية ، ورددت جوانب الوادى تغريد البلابل وزقزقة العصافير .

انطلق يتلفت حوله باحثاً عن الخيال ، وسط تلك المظاهر الفتانة ، متنقلا ببصره بين ماء الغدير يحاكى البلور فى صفائه ، وأزهار البساتين المنتشرة تلبس الأرض حُلة بهيجة من الألوان الزاهية .

وفجأة وقف الفتى جامداً كالتمثال ، حائر اللب ، محدقاً أمامه ، يتطلع إلى مخلوقة لم تقع على أجمل منها العين ، هيفاء فاتنة رائعة ، لم يستر بشرتها الوردية سوى غلالة شفافة من حرير أحمر ، تهفهف كلما هب النسيم .

جمد المسكين أمامها كمن مسه الخبال ، إذ رآها تدنو منه فى دلال وسحر ، وترنو إليه فى فتنة واغراء .

وارتعد لسانه فى فمه يلجلج قائلا :

ـــ آه يا .. سيدتى !.. أنت بحق أجمل مخلوقة فى هذا العالم ، وما ظننت يوما أن الجمال يتوفر هكذا فى غادة واحدة ، فبالله عليك خبرينى من أنت ؟

وتثنت فى دلال ، ثم قالت :

ـــ أنا ... الخيال !

فصاح الفتى فى نشوة من الفرح :

ـــ هذا ما أدركته ياسيدتى منذ رأيتك... لقد بحثت عنك كثيراً حتى كدت أيأس ، ولكن ها أنا أجدك يا ضالتى المنشودة ، لقد وقفت حياتى على العثور عليك والاقتران بك ، لأحظى بالسعادة الأبدية ، تزوجينى ياسيدتى وسأكرس حياتى ووجودى لسعادتك وهنائك

وراحتك — أستحلفك بالله أن تقبلى — وإلا فلا حياة لى بعد هذا !..

وعادت الغادة فمالت كالغصن يحنيه النسيم ، ثم همست فى أذن الفتى ما أسكره قائلة :

— قبلت حبك ، والزواج منك .... منذ الآن !!

وفى لحظة كانت القبلات تغمر يديها ووجهها ، وتأبط الفتى ذراعها العاجى ، وسارا فى حذاء الغدير ينشدان أنشودة الهوى والشباب .

ولم يكن لدى الفتى مال كثير ، أو قصر كبير ، بل إنه عاد بعروسه إلى كوخ فى أحد أطراف المدينة ، فأدخلها حجرته البائسة ذات السرير الخشبى ، معتذراً عن تلك المظاهر الخشنة بفقره ، ولكنه أقسم بحرارة أنه سيأتيها فى الغد بمال وثياب وطعام ، وسيغذيها بروحه وحنانه ليشعرها بالسعادة والهناء .

ومضى أسبوع والفتى يقضى اليوم من شروق شمسه إلى غروبها باحثاً عن عمل ، وعند ما كاد ييأس وفق إلى عمل ضئيل فى طاحونة للقمح .

وكان أول مافعل أن اشترى بأجر يومه ثوبين من

القطن لزوجته ، فرحت بهما فرحا شديدا ، وقبلته فى ثغره قبلة طويلة أرجفت جوانبه .

وفى صباح اليوم الأربعين ، قبل أن ينطلق أول شعاع من ضوء الشمس كان الشاب جالسا أمام كوخه يوقد النار ، وبعد أن وضع القدر عليها ، تسلل إلى حجرة معبودته ليوقظها من سباتها بقبلة ناعمة مدللة .

ولما دنا من الفراش تراجع مذعورا فزعا مما رآه ، لقد شحب وجه حبيبته ونحل جسدها نحولا شديدا ، حتى لكأنه عظام جردت من اللحم ، فصاح من هول المنظر صيحة استيقظت أثرها الفتاة خائفة مرتاعة ، وحين لمحته بجانب الفراش سألته فى صوت خافت واهن :

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ انظرى إلى نفسك !.. إلى ذراعيك وساقيك !.. لقد تلاشيت فى ليلة واحدة !.. ولم يعد لعينيك بريق السحر !.. وقد اختفت ضفائرك الذهبية التى كانت تتوج رأسك !.. وبرزت عظام وجهك .. وتجعدت بشرتك !.. وأصبحت كالهيكل المرعب المخيف !!

وساد صمت قصير لم يكن يسمع فيه غير بكاء الفتاة .

ـــ إذن فلم تكن تحب غير جسدى !.. وجمالى !..
وأنت الآن تنفر من هيأتى وتفزع منى ، ولا يمكنك الدنو نحوى ، ولا لمسى ، ولا تقبيلى ، كما كنت تفعل أولا ، حتى ولو أعطيت ذهباً ..

ـــ كيف أحبك الآن وأنت هكذا !؟ أشبه بالميتة ، نحيلة كالعصا ، جافة كجذع النخلة ! وثوبك .. بل بشرتك قد أصبحت حالكة قذرة ، أنا لا أحتمل رؤيتك بعد الآن ، إنك خدعتنى ، فلست أنت « الخيال » ، وقد شككت فى ذلك من زمن بعيد ! وإنى لمجنون لو بقيت بجانبك لحظة أخرى !

***

وانطلق الفتى إلى قارعة الطريق ، فسار على غير هدى ، وعند ما توسطت الشمس قبة السماء كان قد بلغ مدينة أخرى على شاطىء البحر .

وتعلم أن المال ضرورى قبل أن يعيد الكرة باحثاً عن الخيال ، فأخذ يكد فى إحرازه وجمعه حتى صار فى بضع سنين ، من أغنياء المدينة ، عنده قصر وخيل وحرير .

وذات يوم وقد أصبح رجلا كامل العقل والنمو ، جاءه الداعي يدعوه إلى حفلة ساهرة في بيت كبير من كبراء الحي .

وكان البيت غاصاً بعلية القوم ، قد انتحى كل جمع منهم ناحية من القاعة المزدهية بالأنوار الباهرة ، يتحدثون سمرا وشجونا .

وتقدم رجلنا يتلفت متهاديا في مشيته لعله واجد من يعرفه فيعرج نحوه ، ولكنه صادف في طريقه جمعا من القوم يملأون ركنا هادىء الضوء ويحيطون بغادة فتانة إحاطة الهالة بالقمر ، فيستنشقون عبير جمالها ويروون أفئدتهم برحيق حديثها .

وساقته قدماه نحو هذا الجمع الحالم ، ووقف عن كثب يحلم معهم بنشوة الفتنة والدلال .

وتصاعدت الموسيقى من ناحية البستان المزين بالأنوار الملونة ، وحمل النسيم إلى الآذان أمواج رنين الناقوس يعلن ابتداء الوليمة ، فتحركت الجموع ، وفيها الجمع الحالم نحو قاعة الطعام ، ولكن الغادة الرائعة استأذنت في التخلف برهة ، وعند ما نأى القوم أشارت لعابد الخيال أن يدنو منها ويقترب .

وعند ما كادت تتمازج الأنفاس همست إليه فى رقة أذابت جنانه :

ـــ لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟

ـــ لأنى أشك فى أنك ..

ـــ الخيال !.. أليس كذلك ؟!.. لقد أصبت !.. إنى أنا الخيال ، فهل تبحث عنى ... وهل تحمل لى بين جنبيك عطفاً مثل الذى تخبر به عيناك !!..

ـــ عطفاً ! .. بل قولى حباً .. أو عبادة !! إنى أبحث عنك منذ صباى ـــ لأحبك وأقدسك وأكرس عمرى لاسعادك وإرضائك .

ـــ وهل تعتقد حقاً فى كل ما قلت ؟!

ـــ بل هو كل ما أعتقد به !!

ولم يعرف الرجل ولا أمنيته ماذا حدث بعد ذلك فى تلك الحفلة ، لأنهما انصرفا مع هبات النسيم ، وانطلقا يسبحان فى ضوء القمر .

وتزوجا فى الغد ، ومرت بهما الأيام ، زرقاء السماء ، صافية الأديم ، يرتعان فى بحبوحة الهناء ، ورغد الحب .

إلى أن كان ذات يوم ، وقد وقف الرجل فى إحدى

غرفات قصره ، يرنو من طرف خفي إلى زوجته ، وهي تمشط شعرها الذهبي .

وأصابته الرجفة حين تكشفت أمامه الحقيقة ، فرأى هولا وعجبا ، شعر امرأته يسقط إلى الأرض خصلة بعد خصلة ، وجسدها البض ينكمش ويسود لونه ، وقوامها الأهيف يختلج ، فيحدودب الظهر وتلتوى الساقان .

وحين أسرع نحوها ليتبين جلياً ماحل بها عاد فنكص على عقبيه فزعاً حين لمح وجهها مشوهاً مثل وجه شيطان أو قرد . . .

وصرخ فى صوت مرتعب مرتعد :

ـ ما هذا يازوجتى ؟ ! . ما لخصلات شعرك تسقط إلى الأرض وتغادر رأسك عارية صلعاء ؟! مالوجهك يربد ويسود ، ويجف وينكمش ؟! . وما لجسدك يهرم ويشيخ فى غمضة عين ؟ ما ذا حل بك أيتها . . المرأة ! !

ـ حقاً لست أدرى يازوجى العزيز . ولكنى صرت هكذا وسأبقى هكذا ! . . .

ـ ستبقين هكذا ؟! . ما ذا تعنين ؟ . ستمكثين هكذا شمطاء تجزع العين من رؤيتك ويرتعب الفؤاد من النظر

اليك ؟ !. حقاً تلك هى الطامة الكبرى .. وهذا هو البؤس الذى لا يحتمل .

* * *

وفى ضحى الغد كان الرجل يوخز جواده ليجد فى السير بعيداً عن البلدة التى تحوى تلك الشيطانة المريدة . وليبلغ إحدى القرى ، حيث كان له قصر جميل يقوم على رأس رابية مزدهرة ويطل على واد يانع بالكروم .

وبعد مسيرة ساعتين تعب الجواد وتصبب عرقه ، فترجل الراكب إلى صخرة بجانب الطريق ، وجلس عند أحد أطرافها يمعن النظر فى الربى والوديان الممتدة أمامه إلى نهاية الأفق . . ثم يعود ببصره يتبين مدى الهاوية العميقة التى امتدت تحت الصخرة .

وما لبث برهة حتى لاح أمامه طيف امرأة تسعى اليه من ناحية الأفق . وظل الطيف يدنو حتى تبين فيه آية من آيات الفتنة الرائعة والحسن الساحر ، ففتح فاه لينطق وإذا بالطيف يتبدد ويلبح مكانه شبحاً لعجوز قبيحة شمطاء !

وفزع المسكين فزعاً شديداً ، وظن أن ذلك الطيف

وهذا الشبح إنما هما صورتان لزوجته التى غادرها نفوراً وكرهاً .

وصاح فى صوت متهدج يخاطب الشبح :

ـــ عفواً يا سيدتى . . لقد ظلمتك . . وكنت . .

وجف صوته فى حلقه ، إذ لمح الشبح يولى ورأى طيف الحسناء يعود فيدنو نحوه ، فقال فى جزع :

ـــ من أنت يا سيدتى ؟ !

وأجابه الطيف موليا :

ـــ أنا الخيال ! . .

ومد يده ليمسك بطرف رداء الخيال فأطبق أصابعه على الفضاء وأبصر بشبح العجوز يقترب منه مرة أخرى فصاح متوسلا :

ـــ ومن أنت يا سيدتى بالله عليك ؟ !

ـــ أنا ! . . ألم تعلم بعد من أنا ؟ . . أنا الحقيقة أيها الانسان ! فتعال إلى وقبّلنى وتزوجنى ، وسترى إلى أى شىء أصير ، سترى أنى سأنقلب جميلة حلوة فتانة ، ولكنه جمال دائم وحلاوة باقية ، وإنما أبدو لك قبيحة مشوهة لأختبر نفسك الأمارة بالسوء ، الطامعة إلى الشهوات

الزائفة ، أما تلك المرأة التى فتشت عليها وعبدتها وغرك منها مظهرها وهيأتها ، إنما كانت خيالا فى خيال... وحينما تكشفت لك حقيقتها نفرت منها وهربت !!.. فما رأيك أيها الانسان الطائش ؟ هل تتبعنى فأذيقك لذة الهناء الحق والسعادة الأبدية .. أم مازلت تعبد الخيال وتؤمن به ..؟

وحار الرجل فى أمر هذا الحديث الغريب الذى يسمعه ، ثم نظر إلى الشبح وغطى وجهه جزعا ونطق لسانه عن إيحاء نفسه قبل إيحاء عقله .

— وكيف أصدقك ياسيدتي وهيأتك تبعث الفزع فى النفس ، ولا تثير اعجابا ولا حبا !!!

ولم يختف الشبح قبل أن يقول كلمته :

— إن لك دائما ما تريد أيها الأنسان !

وبعد برهة لاح الطيف هذه المرة آية فى الجمال يرفل فى ثياب رقيقة متلونة بألوان قوس قزح السبعة وله جناحان ذهبيان !!

وطفح وجه الرجل بشراً وقال :

— سيدتى! بالله عليك .. امكثى ولا تولى ، إنى أبحث عنك من زمن بعيد ، إنى أعبدك وأحبك ، وأحلم بك دائما و..

وقاطعه الطيف قائلا :

ـــ أيها الرجل إنك كرهتنى مرتين ـ وولیت منى فراراً . . فلم هذا الخداع تخدع به نفسك وتسىء الى ! ؟

ـــ إنى لم أكن أدرى ماأفعل ، إنى أعدك بالاخلاص اليك والوفاء لك ، فامكثى ولا تذهبى !

ـــ كلا ـــ إنى ذاهبة أيها الرجل . فان أردتنى ورغبت فى صحبتى فاتبعنى واصعد فوق أجنحتى

وطار الطيف وثغر الحسناء يبتسم يحرض الرجل على متابعته

واختلج الرجل على حافة الصخرة . . . ومد يده ليمسك بطرف من رداء الطيف فأطبقها على الهواء ، ثم هوى الى قاع الهاوية يتخبط بين الصخور . . . . وتلقاه التراب مضرجا فى دمائه ولم يغنم من ألوان رداء الخيال السبعة ـــ غير الأحمر ـــ وهو لون الدم . . .

قيام الساعة

« فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت »
« الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ »
« وقعت الواقعة » . « قرآن كريم »

صلاح الدين حسين فتى تقى ، شب وترعرع فى عبادة الله ، والاخلاص للناس ، ولم يكن بالذى يفته فرض من فروض الدين إلا أداه على الوجه الذى أوجبه الشرع ، كان يصلى الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويحسن على المساكين كلما وجد فى جيبه ما يزيد على كفاية يومه ، ولم يكن ثرياً ولكنه كان يقدر النعمة حق قدرها ، فيصرفها بحساب ، وفى الوجه الحلال .

لقد كان نادرة فى الوسط الذى يعيش فيه ، وسط الطلبة والشباب ، حيث تكثر النزوات ، ويسود الطيش ، ويجر الطالح الصالح إلى موارد اللذة المحرمة ، ومهاوى الفساد والرذيلة . كان طالباً بدار العلوم ، يسكن عند أحد أعمامه فى مصر . فاذا انقضى العام الدراسى استأذن فى

العودة إلى بلده ـ وهى قرية من قرى الوجه البحرى ـ فيمكث هناك حتى يولى الصيف ، ثم يعود بعد ذلك ليواصل طلب العلم .

كان يتيما وحيداً توفى أبوه منذ طفولته ، وكفله أعمامه بعد أن ولت أمه فى أثر أبيه ، فأحسنوا تربيته وتهذيبه ، ولا غرو فهم من أهل الفضل والعلم ، ولهم فى ذلك الميدان همة تذكر . وقد استقر بهم المقام هم وأسراتهم بالقاهرة ، ولم يبق فى القرية غير أخيهم الأكبر ، يرعى أموالهم وأمواله ، من أرض ومواشى وزراعة .

ولقد شب صلاح الدين لفرط إيمانه وتقواه وسلامة طويته ونقاء ضميره ، غيوراً على الفضيلة لا يطيق رؤية حرمة من الحرمات تنتهك ، أو حق من الحقوق يؤكل أو يسلب ، دون أن يثور ويجادل حتى ينتصر ، وتلك من صفات الايمان الحقة .

ولشدّ ما كان يؤلمه ويؤذى مشاعره ما تعود أن يرى من أهل بلدته من حب للشر والاثم وبعد عن السلام والفضيلة مما جعله يفكر فى عدم قضاء العطلة هناك ، يغالب باطلهم بكل ما أوتى من قوة ، فلا يجد له من دونهم

نصيراً غير شيخ وقور صالح اشتهر بالورع وحب الخير . وهو إمام المسجد وخطيبه ، فكان يطمئن إلى مجلسه ، ويجد فى حديثه إيناساً ولطفاً ينسيه كثيراً من الهم الذى يملأ فؤاده ، والحسرة على هؤلاء الناس الذين لا أمل له فى دفعهم نحو طريق الهدى ،

* * *

انتهى الامتحان بخير ، وانقضى بعده أسبوع ، ولم يترك صلاح القاهرة لغياب عمه بالاسكندرية . فلما عاد عمه عصر الخميس وجد الفرصة سانحة للاستئذان فى السفر ، وكان قد أعد أمتعته وكل شىء .

وعند ما انفضت مائدة العشاء جلس عمه يسأله عما فعل فى الامتحان . وبعد حديث قصير قال صلاح الدين :

— أرجوك يا عمى أن تسمح لى بالسفر غداً إلى البلدة .

ونظر عمه إلى سقف الغرفة مفكراً ، يتذكر ما كان يبلغه من أخيه عن عراك صلاح ونضاله مع رجال البلدة فى سبيل نصرة الحق والفضيلة ، وشدته معهم فى الجدال باللوم والتقريع . فأجابه بعد برهة بقوله :

— ألا تريد أن تريح نفسك قليلا هذه العطلة من عناء النقاش والجدال ؟

— أى جدال يا عمى ؟

— جدالك مع رجال البلدة وشبانها ، وإعلانك السخط على أعمالهم وتصرفاتهم بطريقة لا تخلو من الحدة والتحدى ... ألا تعلم ياصلاح أن هذا ربما أدى بك إلى ما لا تحمد عقباه ؟ . فقد يحمى وطيس الجدل يوماً إلى درجة أخشى فيها عليك سوء معاملة هؤلاء الناس . . . إنك تنتقد أعمالهم وتلصق الاثم بأفعالهم . وتتوعدهم بعذاب من الله ونقمة منه ، ولا تظن أن ذلك قد يهديهم إلى الرشد أو سواء السبيل . فأنت لا تهمهم فى كثير ولا قليل لأنك لست بسيدهم ، ولا حكيمهم ولا شيخهم . . . فأرجوك ياصلاح أن توفر على نفسك هذا العناء ، وتحسن إلى نفسك فقط بالعمل الصالح ، واترك غيرك يَعمهُ فى الضلال ، وهناك الله تعالى يجزيه الجزاء الأوفى . .

ولم يطق صلاح صبراً عند هذه العبارة الأخيرة فقاطع عمه فى أدب قائلا :

— عفواً ياعمى !. أنا لاأقصد قطع حديثك بالطبع ..

ولكن الدين أمر المؤمن أن يقوم المنكر بكل ما أوتى من قوة مشروعة ، والجدل فى الحديث لم يخرج عن تلك الحدود . . . هل يعجبك يا عمى أن يعيث شبان القرية فساداً فيها فينتهكون أعراض الناس ويدفعون بالفتيات إلى الهروب من بيوت آبائهن والسقوط فى هوة الرذيلة والبغاء ، كما حدث مع بنت الصعيدى وبنت حسان ، ألم تسمع يا عمى بكثرة تعدى أهل البلدة بعضهم على بعض ، سواء بالسرقة والانتقام ، إنك تعلم أنها قرية جل أهلها يعبدون الشر والاثم ولا يعرفون لهم طريقاً غيره وإنى لو أعطيت سلطة على هذه البلدة فلن أدع فيها رجلا إلا سقته إلى السجن متهماً بجريمة الاثم والفجور و . . .

— مهلا يا صلاح مهلا ، أنا لا أريدك تعين إنساناً على منكر كما فهمتنى خطأ ، ولكنى أخشى عليك أن يؤذوك أو يعاكسوك ، وفوق ذلك فأنت تسافر إلى البلدة صيفاً لتنشد الراحة والهدوء ، فما أغناك يا بنى عن هذا العناء الذى يصيبنى منه قدر غير يسير من كثرة شكواهم منك !! .

وعند ذلك أدرك صلاح السر فى محاولة عمه أن يثنيه عن ذلك العزم . . فقال فى لهجة من يعطى عهداً :

ـــ أشكرك يا عمى ، لحرصك على راحتى لهذه الدرجة ، وأعدك أنى لن أجلب لك ما تكرهه من جراء هذا الحماس الذى اتصفت به وتمكن منى إلى حد كبير .

وتناول الحديث بعد ذلك موضوع رسالة من العم إلى أخيه بالبلدة عن شئون الزراعة والمحصول .

وانصرف صلاح بعد هذا إلى غرفته ليضع فى حقيبته بضع مؤلفات فى الدين والفلسفة استعارها من مكتبة عمه ليقرأها خلال العطلة .

* * *

ولقد كان لحديث العم على صلاح أثر قوى ، فقد وهن حماسه وتبدد عناده ، فكان يرى ويسمع ما لا تطيقه عيناه وأذناه ، فيكبت الغيظ فى أعماق نفسه ، ويستغفر الله .. وانقضى الصيف أو كاد ، ورأى صلاح بعينى رأسه كيف يلعب الشيطان برأس الانسان فيدفعه إلى اقتراف أشنع الجرائم فى رابعة النهار ، شأنه شأن الحيوان المتوحش الذى لا عقل ولا ضمير له . رأى أحد أبناء

بلدته ، شاباً قوياً مفتول العضلات ، ينتقم لكلمة سباب فاه بها أحد جيرانه ، فى حق أخته ، فيتربص له بين أعواد الذرة فيمزقه إرباً بالسكين ، ولا يترك له من معالم وجهه أو أطرافه شيئاً ، ثم إذا جاء والد المقتول يطلب تسليم القاتل إلى السلطات اندلعت ألسنة الفتنة بين الأسرتين فسقط فيها ثلاثة رجال مجندلين .

وسمع صلاح بأذنيه عمدة القرية يطلب من شيخها أن يغرى زوجة أحد الخفراء ، وهى فتاة جميلة هيفاء . قد مرض زوجها ونقل الى مستشفى البندر . لتبيت فى بيت العمدة حتى يعود زوجها ، وهو يتمنى فى ذلك أمنية سيئة طالما تعب فى سبيلها كثيراً .

ثم هنالك مجالس الأنس وسهرات الحظ يجتمع فيها فتيان القرية كل ليلة فيتجرعون سما يسمونه خمرا ، ويدخنون الحشيش ، ويضاجعون امرأتين من بغايا البندر .

ومع كل ذلك ، فقد كان العجب يأخذ منه كل مأخذ حين يرى مسجد القرية مليئا كل جمعة بهؤلاء الأوغاد . يرتدون ثيابا طاهرة فوق أجسادهم المدنسة ويقفون بين

يدى الخالق يقرأون القرآن ويؤدون فرض الصلاة ، وعبثاً حاول هو وإمام المسجد أن يلقيا عليهم العظات أو النصائح ، فى هجر المنكر وترك الفحشاء . وتقوى الله فى أعمالهم . حتى تستقيم أحوالهم ، ويرضى الله عنهم . .

لقد كان يحزنه كثيراً أن يتمادى أهل القرية فى طغيانهم ، وعمدتهم على رأسهم ، دون أن يجدوا وازعا عن هذا الضلال والفجور ، ولم يكن يبقى على انتهاء العطلة غير أسبوعين سيعود بعدهما إلى مصر مملوءاً بالحسرة والحزن على ما بلغته بلدته من الفساد .

وكان كلما وقف يجادل أحدهم . ليصده عن سبيل الغواية . تذكر كلمات عمة ، وخاف أن يبلغه الأمر . فيمضى دون أن يتم النصح أو ينتهى من صب اللوم والتقريع على من أمامه .

وبعد ! . فماذا هو فاعل . هل يرسل إلى السلطات بلاغا بما يقترفه العمدة من انتهاك للاعراض واغتصاب للحقوق ، وبما يفعله شبان القرية من محرمات ، وبما يحدث كل لحظة من مفاسد ورذائل . ؟ ؟ . . كلا . انه سينصب بذلك عداء مستحكما بين القرية كلها من ناحية وبين أعمامه

وعائلته من ناحية أخرى . كلا كلا . ليس هذا من الحكمة في شيء . . وإذن فلم يبق غير الصبر . . والله المستعان .

***

جلس صلاح صباح الخميس على ضفة القناة ، تحت شجرة كافور ، يتصفح صحف الامس ليعرف أخبار العالم وأحوال السياسة ، وإذا ببصره يقع على خبر غريب اهتزت له ارجاؤه ، وسرى الرعب في بدنه ، ولا عجب فقد كان الخبر تكهنا بانتهاء العالم بعد يومين حين يصطدم أحد الكواكب السيارة في مداره بالأرض فيتهشم العالم وتهلك الدنيا ومن عليها .

ولو كان هذا التكهن صادراً عن فرد من عامة الناس لكان الشك فيه أقرب من اليقين ولكن هيئة من العلماء الفلكيين قد اتفقت عليه بعد أن تأكدت لها صحته بما أجرته من التجارب في قياس الزوايا والابعاد .

واختتم الخبر بأن الرعب سائد في جميع الانحاء خشية وقوع هذا الخطب العظيم .

ووضع صلاح الصحيفة أمامه واعتمد رأسه بين يديه يفكر وقد أهمه كثيراً ذلك الخبر واستغرق كل مشاعره .

. . . وإذن فقد انتهى العالم . . وهلكت المخلوقات من حيوان ونبات وجماد . . إذن فقد اندثرت الدور والقصور واختفت معالم الطرقات والأنهار . . وزالت قوة الانسان التى سخرت لها من الماء والأرض والجو قوى تخدمها وتخدم أطماعها . . إذن فقد دالت الدول . . ودال معها مجدها وجيوشها وأساطيلها . . وأراضيها . . وهلك الانسان الطاغى . . المنافق . . الذى بلغ به الطمع حد ابتغاء الاستيلاء على أكوان وعوالم غير الأرض . . ذلك الانسان الذى لم يدع مجالا للشر إلا سلكه . . ولم يترك بابا لاشباع شهواته الا طرقه ، لا همه فى ذلك انتشار الفساد بين قومه وأمته أو هلاك الألوف والملايين من أمثاله من البشر . . . الانسان الذى لم يثنه عن عزمه شىء ، ولم يقف فى طريق إرادته شىء . . غير الموت .

إذن فقد ذهب الوجود وانعدمت وسائل الحياة . . واختفت الطبيعة . . ولم يعد للشمس شروق أو غروب . . ولا للقمر ضوء فضى جميل .

إذن لقد أذّنَ مُؤذن الفناء . . ولحقت الأرض بالسماء ! .

لقد ورد فى الخبر أن احتكاك الكوكب بالارض ستسبقه اضطرابات فى الأجواء التى صيفت من عناصر مختلفة .. فالأجواء المحيطة بالأرض ستختلط بالأجواء المحيطة بالكوكب ، ويحدث من جراء ذلك تفاعل خطير سيودى بحياة كل موجود

إذن فآية ذلك اليوم ، كما أخبر هؤلاء العلماء ، هى التفاعل الخطير فى الأجواء ، فاذا حدث ذلك فقل على الدنيا السلام .

ولكن .. هل يحتمل أن يكون هذا التكهن غير صحيح ؟ .. لم لا ؟ .. هل قد أوحى الله إلى هؤلاء العلماء بميعاد يوم النشور .. وهل كان فى مقدور أحدهم أن يدخل فى عالم الغيب .. فيدرك هذا السر الرهيب .. الذى لا يعلمه الا الله وحده ؟؟ ..

. . . . . .

وهكذا جلس صلاح ينظر الى الماء ينساب فى هدوء فتتمثل أمام ناظريه كل هذه الاهوال فيهز رأسه أسفا ويتمتم أن لاحول ولا قوة إلا بالله ..

وعادت إلى ذهنه حسرته على أهل قريته .. سيذهبون

جميعا الى الجحيم . فيذوقون عذاب الهون بما كانوا يعملون . .

*

* *

لم يبق على نهاية العالم غير يومين اثنين . . فهل يعود إلى القاهرة ليرى عمه وأطفال عمه الذين يحبهم الحب كله؟ أو يبقى فى بلده حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ؟.. وما فائدة ذهابه الى القاهرة أو غير القاهرة .. مادامت القيامة قائمة بعد بضعة عشرات من الساعات . . لا فائدة فى أى شيء .. لافائدة فى السير ولا فى النوم ، ولا فى السعى .. ولا فى الكلام .. لافائدة فى أى شيء !!..

سبحان الله !.. لقد كانت الساعة من علم الله وحده ، وكان الأجل والقضاء فى علمه وحده ، حتى يظل الانسان راغبا فى الحياة ، مقبلا على السعى ، طامحاً الى تحسين أحواله ، مملوءا بالأمل فى اليسر بعد العسر ، والشفاء بعد المرض .. والقرب بعد البعد . . والشبع بعد الجوع ، والفرح بعد الحزن !.. ذلك من حكمة الله فى تدبير الكون ، سبحانه لقد وسعت حكمته كل شيء ..

.. أين يذهب صلاح والوقت لم يزل بعد ضحى ؟!..
ولم يبق على فناء العالم غير بقية الخميس ونهار الجمعة ؟

قد يكون من الأصوب أن يسرع الى الشيخ فراج رجل القرية الصالح ، وإمام مسجدها ، ليخبره بالأمر ، ويرى ماذا هو قائل .

*
* *

كان الشيخ فراج يجلس فى فناء داره على مقعد خشبى طويل قد صُفّت عليه بعض الوسائد ، وبيده القرآن يتلو منه بضع آيات .

وعندما وصل صلاح كان الشيخ يقرأ فى سورة النجم فى نغمة خاشعة :

« ... وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيَه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى ، وأن الى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفةٍ إذا تُمنى ، وأن عليه النشأة الاخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من

قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى، والمؤتفكة أهوى، فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تتمارى ، هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا . »

وكان صلاح ينصت الى الشيخ يتلو هذه الآيات فيكاد يخر ساجداً من خشية الله . . . فاذا بلغ الشيخ ختام السورة خيل لصلاح أنه يسمع وحيا سماويا ينذر الناس بقيام الساعة وأن ليس لها من دون الله كاشف ولا معين !

وعند ما قام الشيخ لتحية الفتى روّعه ما أحس من ارتجاف يده وبرودة أصابعه ، وما رأى من فزعه وذهوله ، فبادره بقوله :

ـ مالك يا بنى ؟ أأنت مريض ؟ أم ماذا حدث ؟!!

ولم يحر صلاح جواباً بل مد يده فى تؤدة إلى جيبه وأخرج الجريدة وناولها للشيخ مشيراً إلى وسط الصحيفة بأصبعه

وأول ما خطر للشيخ أن أحداً من عائلة صلاح قد

غادر الدنيا فتجهم وجهه ، ولكنه ما كاد يرى عنوان الخبر حتى تبدد قلقه وانطلق يقرأ فى هدوء .

ومضت برهة وصلاح يترقب وجه الشيخ فى لهفة ليرى مدى تأثير الخبر عليه ، ولكن ذلك الوجه لم يشحب ولم يصفر ، ولم تبدُ عليه علائم العجب أو الفزع . ولا غرو فنفس الشيخ قد تعودت الصمود فى أقسى الظروف ، وقد خلع عليه مر الزمن قوة فى ضبط النفس وشجاعة فى شتى المواقف .

خلع الشيخ منظاره بتؤدة فوضعه فى كيسه الجلدى ثم التفت إلى الشاب ، ونظرات عينيه تنذر بأمر هام .

ـــ أظن هذا الخبر قد أهمك كثيراً واستولى على عقلك يا صلاح منذ اللحظة التى قرأته فيها ، والحقيقة أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله وحده ، واحتمال وقوعه أمس أو اليوم أو غد شىء معقول ، لولا ما روى عن بعض الفقهاء القدماء من حدوث علامات أو أمور تخبر عنه ، ولقد تقدم العلم الحديث وبلغ بحث الانسان درجة بعيدة تساعده كثيراً على درس الظواهر الطبيعية ، ومعرفة مواعيد حصولها مثل كسوف الشمس وظهور الكواكب

وانتقالها فى أبراجها . فلا عجب إذن إن أدرك العلماء سراً كهذا ، فأنذروا العالم بنهايته .

وليس يدفعنى يا بنى إلى المضى فى هذا الظن إلا رؤيا رأيتها بالأمس ، فأزعجتنى كثيراً ، وما زلت أقلب أمرها فى عقلى فتعترينى حيرة شديدة ! ...

ولم يطق صلاح صبراً على ما سيقوله الشيخ بل قاطعه متلهفاً :

— وما ذا رأيت يا عم الشيخ ؟! ..

— رأيت كأن السماء احمرت من فوق قريتنا احمراراً شديداً ، ليس كمثل احمرار الشفق بل كلون الدماء ، ثم تساقط المطر فى قطرات حمراء كالدم ، واسود الجو وأظلم ، وامتلأ برائحة خانقة ، واستيقظت فزعا أكاد لا أدرك أنفاسى ... والذى يحيرني يا بنى هو أن رؤياى يتحقق منها الكثير . . ولست أدرى كيف أعلل هذه الرؤيا الغريبة !! ..

فأجابه صلاح فى ذهول :

— إذن فلعل الصدق ما قال هؤلاء العلماء ، وحينئذ

فلم يبق غير أن نجثو راكعين نطلب العفو من الله على ما أخطأنا ، واللطف فيما قضى به . . .

ومسح الشيخ بكفه على جبهته مستغفراً الله ومستعيناً به ثم قال :

ـــ لقد بلغ العالم يا بنى درجة خطيرة من الفساد والفجور ، وقرب اليوم الذى يحاسب فيه المجرمون على ما جنت أيديهم . . لقد غرهم ما رأوا من عظمة الكون والعمران . وحسبوا أن الله الذى خلق كل هذا ، سيترك الانسان سدى ، فلا حساب ولا عقاب ، ولا بعث ولا نشور ، وقالوا ما هى إلا حياتهم الأولى وما يهلكهم إلا الدهر ، ونسوا أن الذى خلقهم من نطفة تمنى هو القادر على أن يبعثهم من مراقدهم مرة أخرى ، فيجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويعذب المنافقين والكافرين عذاباً شديداً .

وساد بعد ذلك صمت طويل قاطعه الشاب بقوله :

ـــ هل تظن يا عم الشيخ أن من الأفضل أن نخبر أهل القرية بالأمر الآن حتى يتفرغوا إلى الاستغفار ، ولعل الله مخفف عنهم من عذابه . . إنهم قضوا أيامهم فى

عبادة الشيطان والاثم ، فاستحقوا غضب الله ، ولكن رحمته قد وسعت كل شيء ، وهو يغفر الذنوب لمن يشاء .

ـــ يا بنى ، لا أظن التوبة تنفع فى هذا الوقت ، قرب انقضاء الأجل ، وإنما هى خداع يلجأ اليه الانسان المنافق ، ولكن من الذى يخدع ؟!

ـــ إذن أفلا نخبرهم بالأمر ؟ .

ـــ دع ذلك حتى غد ، حينما يجتمع هؤلاء المنافقون فى المسجد ، لأداء الصلاة ، فنفاجئهم به !.

* * *

امتلأ المسجد ظهر الجمعة بالرجال والشبان والأولاد لأداء فرض الصلاة ، سيراً على التقاليد ، وأذن المؤذن وخطب الخطيب خطبة طويلة فى البعث والنشور ، ثم أقيمت الصلاة ، وفرغ الامام فسلم عن يمينه ويساره ، وتبادل المصلون تحية الختام وتحركوا بغية الوقوف للانصراف ، وإذا بصوت يدوى فى أرجاء المسجد صائحاً كأنه النافخ فى الصور :

ـــ أيها الناس !!!

وتلفت الكل فى ذعر يبحثون عن الصائح ، وكان

صلاح يقف أمام باب المنبر ، فاتجهت اليه الأنظار من كل صوب .

— عندى لكم نبأ شؤم ! ستفزعون له أو ستبكون إن كان فيكم بقية من إحساس أو شعور ، هل بلغكم أن القيامة قائمة فى هذه الليلة ؟ . وأن هذا هو ما أثبته علماء الفلك ، رأوا بمناظيرهم المكبرة أن كوكبا يقترب من الأرض وسيصطدم بها فى ميعاد غايته صباح الغد ، فيفنى العالم وينتهى الكون . وقد كتبت جرائد الأمس طويلا عن هذا الحادث الهائل فوصفت فزع الناس فى جميع البلاد ، وها أنتم أمام الأمر الواقع . . حين لا ينفع ندم ولا تفيد توبة ، لقد أخطأتم وأثمتم ، وكان أكثركم فجرة فاسقين ، فانصرفوا الآن إلى بيوتكم أو ابقوا فى أماكنكم فلا فائدة اليوم فى نصح أو وعظ ، فقد فات الوقت ولم يبق غير يوم ، ثم ترجعون إلى خالقكم ، ثم يبعثكم ليحاسبكم على نفاقكم وفجوركم . . وليس الأمر بهذر أو تهويل ، وإنما هو الجد بعينه . . وإن غداً لناظره قريب . .

فليذهب الذى اؤتمن على أمانة فيوفيها إلى صاحبها كاملة ، وليذهب الذى عاهد عهداً فيفى بعهده . . اذهبوا

فأدوا الحقوق الى أصحابها ، واطلبوا السماح ممن ظلمتم ، لعل الله يخفف عنكم بعض ما ستلاقون من عذاب أليم .. عظيم !

إن هؤلاء العلماء ـ وهم من بلاد مختلفة ـ قد اتفقوا على رأى واحد ، وهو حصول تفاعل جوى خطير ، قبيل اصطدام الأرض بالكوكب ، فيهلك الناس والأموال جميعاً ، ثم يتهشم هذا العالم ويتطاير فى الفضاء ، إلى حيث لا يعلم إلا الذى خلقه وكوّنه .. »

ووجم الناس جميعاً وكأن على رؤوسهم الطير ، ومن عجب أن الخبر قد هز قلوبهم هزة عنيفة ، وخصوصاً عند ما لوّح لهم صلاح بالجريدة ونشر أمام أحدهم الخبر فقرأه على الجميع بصوت عال .

وعند ذلك وقع ما لم يكن فى حسبان أحد .. فما كاد قارىء الخبر يفرغ من حديثه حتى طرق أسماع القوم من خارج المسجد صفير ريح عاتية تعصف منذرة بالويل والثبور ...

ولقد حدث ذلك بسرعة غريبة . حتى لكأن الريح قد انطلقت من مربضها فجأة ، فجمحت جموحاً شديداً ،

وما لبث الجو أن اصفر ثم أظلم ومالت جذوع الأشجار تنحنى وجلا من قوة العاصفة . . .

وشحبت وجوه الذين وقفوا داخل المسجد، وارتجفت أبدانهم ، وأيقنوا أن ما سمعوه لم يكن هذراً أو تخويفاً ، وأن قد حُمّ قضاء الله الأكبر . . . .

واعترى الجميع جنون الفزع ، فصاح أحدهم مرتعداً : « اللهم ارحمنا واغفر لنا . . واعف عنا ! . . » وصرخ الآخر : « يا رب إنى أتوب اليك من كل الذنوب فاقبل توبتى ! . . » . وارتفعت الأصوات تتوسل إلى الله أن يغفر وأن يرحم وأن يتوب . . . وتحدرت الدموع على خدود الرجال .

ودقوا أكفهم أسفاً ، وحاروا فى أمرهم ماذا يفعلون . . . إنهم بعد قليل ميتون . . ولقد فات الوقت فلم يتزودوا للآخرة بعمل صالح ، وقضوا أعمارهم فى السعى وراء أمور الدنيا ، ونسوا الله والنشور والحساب ، فأنساهم أنفسهم . . وحق عليهم الويل وعذاب الجحيم .

لم يفكر أحد منهم فى الخروج من المسجد والعودة إلى بيته لرؤية أهله ، فما كان هؤلاء ليعيدوا اليه رحمة ربه

ومغفرته ، وإنما هى الأعمال الصالحة . . وأين لهم ذلك فى اليوم الأخير ، أين لهم أداء الصلاة ، شكراً لله ؛ التى أوجبها عليهم فى كل يوم من حياتهم ، وأين لهم رمضان يصومونه ، وعيد الفطر يزكون فيه . . . أين لهم العهود فيوفوا بها ، والأحاديث فيصدقوا فيها ، والأمانات فيؤدوها ، والأعراض فيصونوها . . . أين لهم الأيتام فيوفوهم أموالهم دون اغتصاب ولا اغتيال ، وأين لهم من الزمن حياة أخرى ليهجروا الخمر ويتجنبوا الزنا ، ويبتعدوا عن الاثم والفجور ، والكبر والظلم والطغيان . . . إنه يوم واحد ، سينتهى فيه العالم ، فلن تعود الشمس تشرق على الأرض ، ولن يعود النهار يهزم الليل ، ولن يعود الانسان حراً يفعل ما يريد .

صعد الشيخ الامام فراج الى منتصف المنبر ثم أشار للجميع بالهدوء وقال :

« إن الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما هو وحده القادر على إهلاكهما حين يشاء ، وقد بلغكم وبلغنا مايقوله هؤلاء العلماء الفلكيون، ثم ها هى العاصفة تهب والجو يسود ، والنبوءة تكاد تصدق ، وليس أمامكم

الآن غير ضئيل من الوقت، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وانى أرى أن يسرع كل منكم فيؤدى لكل ذى حق حقه ما أمكنه ، من الحقوق التى تعلق برقابكم ومن عجز منكم عن ذلك فما له سوى استغفار الله . . هيا انفضوا الى بيوتكم فأقيموا بين أهليكم وانتظروا القضاء الأعلى . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . . »

وخرج الجمع من بيت الله يتسابقون قبل فوات الوقت ، وأسرع عمدة البلدة وشيخها ليتصلا بالمركز ، ويتبينا جلية الأمر، فألفيا « التليفون » معطلا والأسلاك قد تقطعت من شدة الرياح ، ولا وسيلة عند ذلك غير عبور النيل ، وتلك كانت مستحيلة وقتذاك . . .

أما الشيخ فراج والشاب صلاح فقد ظلا وبقى معهما بضعة من كهول البلدة . . . والتف الكل حول الامام يستفتونه فى ذلك الأمر الجلل . وسأل أحدهم وهو كهل بلغ السبعين وما زال محتفظاً ببقية من نشاطه :

ـــ أخبرنا ياشيخ فراج . هل يدخل المسلمون جهنم ؟

ـــ لقد وضع الاسلام للمسلمين حدوداً يلزمونها ، أقرها الشرع وقالت بها السنة ، فمن لزم هذه الحدود

فصلى وصام وزكى وحج وصدق الناس عهداً وحديثاً واتقى الله وآمن برسله وكتبه وبالبعث والحساب فقد عوفى من عذاب النار وكان من أهل الجنة والنعيم . ومن خرج عن تلك الحدود فله عقاب على قدر إثمه ، ولا يبعد أن يكون من أهل السعير ، ولا يكفى المسلم أن ينطق بالشهادتين ، أو يصلى . . أو يؤدى بقية فروض الدين الحنيف . ثم يكذب ويخدع ، ويشرب الخمر ، ويخون العهد ، ويدس لأخيه عند صديق أو رئيس ، ويفعل ما حرمه الله . فهو بذلك ليس بمسلم ، وإنما منافق فاسق حق عليه غضب المولى وعذابه الأليم . . . وإن كل فرد من البشر فى هذا العالم الكبير الهائل سيحاسب على أعماله فمن فعل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن فعل مثقال ذرة شراً يره ، ولن يظلم الله الناس يوم الحساب .

وما كاد الشيخ يصل الى قوله هذا حتى طرق الاسماع عويل نساء ينبىء بوقوع شر مستطير . وأسرعوا الى الطريق فراعهم ما رأوا من ظلمة الجو وعتو الرياح ، ثم لمحوا عن اليمين دخاناً شديداً يعلو أحد البيوت فأيقنوا أن هناك حريقاً . . .

وأى حريق !! لقد اشتعلت النيران فى بيت زعيم القوم عمدة البلدة ، وحملت الريح قبساً من اللهيب تشعل به بقية البيوت وكأنما يد بشرية تمر فوق القرية فتضع اللهب هنا وهناك بسرعة هائلة ، يساعدها تماثل الارتفاع فى المبانى.

وأسرع الذين تخلفوا بالمسجد الى بيوتهم ليروا ما حل بأهليهم ، وجرى صلاح الى بيت عمه فألفاه هو وزوجته يسرعون بعيداً عن البيت الذى لم ينج من ألسنة اللهب المستعرة . . .

وتعالت صرخات النساء وولولتهم ، وانتشر مع اللهب خبر قيام الساعة فسلم الناس أمرهم للقضاء ولم يبدوا حراكا لاطفاء النيران ، وتركوا متاع الحياة الدنيا تلتهمه النار ، وخرجوا زرافات يصرخون ويبكون الى جهة الحقول .

واشتدت العاصفة ، وتعالت اللهب ، ووقف القوم من بعيد ينظرون الى قريتهم تأكلها النيران ، ثم الى أكوام القمح تصير هشيما تذروه الرياح !

لقد آمنوا وصدقوا بما قيل لهم فى المسجد عن قيام الساعة ، وكذلك آمن الامام فراج ، وبجانبه صلاح وعمه العجوز . . وركع الكل على تراب الطريق وطين

الأرض راكعين أكفهم يضرعون الى الله غافر الذنب قابل التوب، ولقد كان أهدأهم بالا وأقلهم بكاء ذلك الشيخ الصالح والشاب التقى . . .

وتلفت صلاح حوله ليرى ماذا يفعل هؤلاء الناس، وكيف يقابلون ذلك اليوم العسير وماذا تفعل النساء اللاتى جلسن فى ناحية وحولهن الصبيان والأطفال فرأى الدموع تسيل على الوجوه ، والأفواه تتمتم فى حرقة وتوسل وخشوع . . .

ورأى عيناً من أعيان القرية يتناول يد أحد الخفراء فيقبلها ويتوسل اليه أن يسامحه، ورأى آخر قد عفر وجهه تراب الأرض من طول السجود ، ورأى شيخ البلدة يجول بنظره باحثاً عن عبد المتعال الفلاح الفقير فيسرع نحوه ليؤدى اليه ثمن ما اغتصبه منه من ذرة وقمح وشعير ثم رأى امرأة تصيح فى جنون تنادى زوجها من بين الرجال، فتجرى اليه وتمسك بذراعه وتطلب منه الصفح عن أثم قد اقترفته فى حقه ، ولا يريد الرجل أن يصفح قبل أن يعرف ما هو الاثم فتخبره فى صوت يكاد يقطر من نبراته دم قلبها أنها اقترفت فى حقه جريمة الخيانة

العظمى !.. ولكن الرجل يدفعها بعيداً عنه فتسقط فى الطين باكية مولولة . . .

أصاب الناس جنون الساعة ، فأخرج كل منهم مكنونات نفسه يطلب الصفح عمن ظلمه ، وتحركت الألسن بما فعلت الأنفس ، وانقلبت دخائل القلوب ظواهرا ، وعرف زيد ما فعل عمرو ، وعلم بكر ما اقترفت هند ، وتكشفت الخيانة ، وظهر الغدر ، وفضح الله القوم بما فعلوا ، والله هو المنتقم الجبار . . .

وظلت النار تأكل حرثهم ومتاعهم حتى أصبحت القرية قاعاً صفصفاً لا خير فيها ولا حياة . . .

وظل القوم فى ذهول لاهين بالاستغفار لا يهمهم ما وقع بأموالهم من هلاك . . .

وظلت الريح تعصف وتشتد فتندلع ألسنة اللهب هنا وهناك فتأتى على ما بقى بلا حريق . . .

وأظلمت الدنيا ظلاماً حالكا خاله الناس نذير الطامة الكبرى فاشتد استغفارهم وطال سجودهم وبقى الظلام محلقاً فوق رؤوسهم ، والريح تصفر من بين أيديهم ومن خلفهم ، واللهب تتراقص أمام أعينهم . . .

داموا على تلك الحال ساعات وساعات ، وغشى بعضهم النوم وهم ساجدين ، ثم بدأت الريح تهدأ شيئاً فشيئاً ، حتى سكنت حركة الهواء . . .

وما هى إلا برهة بعد هذا حتى لاح من ناحية الشرق ضياء، وتبدد الظلام .. ثم برزت الشمس من وراء الأفق البعيد . فأضاءت العالم بنورها الذى يبعث النشاط والحركة فى الوجود ويحفظه الحياة فى كل موجود .

وذهل القوم مرة أخرى ذهولا أشد وأنكى !!

فهاهو العالم حى لم يهلك بعد ، وهاهى الشمس طالعة والسماء زرقاء ، والطيور تحلق فوق رؤوسهم ، ونسيم الصباح يهب عليلا من جديد ..

لقد فاتت الساعة التى أنذر بها المنجمون .. وانقضت بعدها بضعة ساعات ، وسلم العالم من الهلاك ومضى الكوكب فى مداره دون أن يمس الأرض بسوء ..

لقد أطال الله فى أعمار القوم . بل فى حياة الكون وعادت أجنحة الأمل ، ترفرف على نفوس البشر ..

تبادل القوم نظرات الشك يخالطه اليقين لا يكادون يصدقون أنهم أعطوا الحياة من جديد ، ليحيوها مرة

أخرى فيكفروا عما اقترفوا من سيئات، ويتبعوا طريق الهدى والسلام ..

ولكن !.. بيوتهم وأموالهم .. لقد هلكت واختلطت بالتراب .. فماذا هم فاعلون ؟!..

الحق أن ذلك لم يكن يستولى على مشاعرهم كل الاستيلاء ، بل إن اطمئنانهم على بقاء الحياة وعودة الوجود قد خفف كثيراً من حسرتهم على ما أدركهم من أذى وويل شديد لم يروه ولم يحلموا به من قبل . كل ذلك فى ليلة واحدة . جزاء بما كانوا يعملون .

وظلت الشمس تسطع وهم قعود، لا يكادون يصدقون أن قد كذب المنجمون ، وان الساعة من علم الله وحده لن تقوم إلا باذنه ، وحين يشاء ، وأن علم الانسان ما كان فى منتهاه ليبلغ قطرة من بحر علم خالق الكون ومدبره.

ولاح فى أقصى الأفق رجل يمتطى حمارا وحين دنا رأوا فيه ساعى البريد ، وقام الرجال اليه وفى مقدمتهم عمدة القرية وشيخها ، وقد قرح عيونهما البكاء !.

ودهش الرجل حين اقترب من القرية فوجدها خرابا بلقعا . لا يزال الدخان ينبعث من بين جدرانها المحترقة ،

وذهل حين شاهد كل أهلها يجتمعون بعيدا عن بيوتهم فى أحد الحقول الجرداء .

وكان أول مابودر به من الحديث سؤال العمدة عن حالة البندر ، وأجاب الرجل أن الحال عادى سوى أن رياحا شديدة هبت بالأمس وهدأت حول منتصف الليل .

وسئل عن خبر قيام الساعة الذى ظهر بالصحف فأجاب أن الناس لم يعيروه كثيرا من الاهتمام لسبق وقوع مثل هذه التنبؤات وعدم تحققها .

وأضاف الرجل المذهول مستفسرا :

ـــ ولكن ماهذا كله يا حضرة العمدة ؟ . انى أرى النار قد أحرقت البلدة فتركتها فحمة سوداء ولم يبلغ البندر أى خبر ، فكيف كان ذلك ؟!

ونظر اليه العمدة شارد الفكر ثم قال :

ـــ لقد بلغنا ذلك التنبؤ بأن الساعة قائمة ليلة أمس . وأن الجو سيحدث تحول خطير سيهلك كل شىء ، فلما هبت العاصفة واشتعلت النيران ، حسبنا ذلك مظهراً من مظاهر قيام الساعة ، وقد انعدمت بيننا وبين البندر المواصلات التليفونية بفعل العاصفة ، ولم نُنبأ بما تحدثه

النار فى البيوت والأموال ، وتركنا المواشى تنطلق إلى حيث تريد ، وقضينا الليل كله راكعين .. فى هذا الحقل ، حتى أشرقت الشمس .. وعادت الحياة تدب فى الكون .

ثم تنهد العمدة والتفت إلى شيخ البلد قائلا فى نغمة خاشعة مؤثرة :

— لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد ابتلانا الله تعالى بما نستحق من جزاء ، واليوم نبدأ حياة جديدة ، وقد تطهرت نفوسنا من رجس الشيطان .

***

وفى الصيف التالى جاء صلاح الدين من القاهرة ، وأفعم قلبه بالسرور ، وتحرك لسانه بكلمات الثناء لله ، حين رأى مكان القرية المحترقة بيوتا جميلة بيضاء ، قد تراصت فى نظام هندسى بديع ، وقام فى وسطها مسجد كبير جميل ، يحيط به متنزه واسع مزدهر ، وقد قامت الحكومة ببناء كل ذلك على نفقتها على أحدث النظم والقواعد الصحية ... ويسكن هذه البيوت رجال ونساء وأطفال ، لا تقل قلوبهم بياضا عن حليب الأبقار ، ولا ضمائرهم صفاء ولا نقاء عن زرقة السماء ...

مصرع أخي

لا بد للانسان من ضجعة
لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه
وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى ، فما بالنا
نعاف ما لابد من شربه
« المتنبي »

. . . ترقد في نواحي الفؤاد ذكريات حزينة، قد تجللت بالسواد، وخيمت حولها الرهبة، وألبسها اليأس لباس الحزن والجزع، فأقضّت المضجع بشوك من الكرب والكدر...

هي ذكريات أولئك الذين فقدناهم في ميدان الحياة . أولئك الذين جذبتهم يد المنون . . إلى حيث لا نرى لهم جسداً ، ولا نسمع صوتاً ، ولا نحس وجوداً . . . اللهم إلا في قلب الليل ، حين تغفو الأجفان ، ويصرع النوم الأجساد ، وتسبح الأرواح في عالم الأحلام . . .

إننا في هذا العالم المملوء بالشرور والآثام، والأحزان والأكدار ، والحسد والبغضـــاء ، والدس والكبرياء ،

لا ندرك لشخص قيمته ، ولا نقدره حق قدره ، حتى إذا اختفى بين طيات الزمن ، وانطوى بين أمواج الأجل ، ندمنا على ما فرط منا فى حقه ، ظلماً وعدواناً ، من سوء فى معاملة ، أو اتهام باطل ، أو سورة غضب ظالمة ، فان لم يكن هنالك من ذلك شيء ، كانت الحسرة حسرة على الفراق ، وعلى ما خلف من قلوب منفطرة ، أو نفوس ثكلى ، أو عيال بين براثن الفقر والحاجة .

***

. . . عبوس ذلك اليوم القاسى ، الذى فقدت فيه أخى . . فقد كان فتى ممتلئاً بأمل الحياة والمستقبل يطرق أبواب الدراسة العالية ، طاهر النفس ، والضمير ، حسن الأخلاق ، حلو الشمائل . . . . ولكن الموت نقاد ، على كفه جواهر يختار منها الجياد . . . .

خرج أخى صباح يوم من أيام الصيف ، على أثر جدال قام بينى وبينه حول موضوع تافه لاقيمة له ، خرج دون أن يتذوق من طعام الافطار شيء . . خرج ليتمشى نحو قرية المعادى التى تجاورنا . . . ليتنسم الهواء . . بين الأشجار والحقول . . .

ولم ينقض على خروجه أكثر من ثلث الساعة حتى طرق باب بيتنا صبي . . . وأجبت الطرق . . . فابتدرني بالسهم قائلا . . . « لقد صدم القطار أخاك . . . ! »

ولن أنسى تلك الصرخة ، التي صرختها يومذاك في فناء البيت . . . وتجاوبت أصداؤها الجدران ، وتلك الرعدة التي سرت في أنحاء بدني فكهربت حواسي وملأتني بجنون الحسرة واللهفة .

وانطلقت بثياب البيت . . وبالنعل الجلدي في قدمي وأخذت أعدو كالمجنون نحو المعادي . . . يا إلهي ! . . اللهم إني استغفرك فأنت أحكم الحاكمين . اللهم لا اعتراض على قضائك . . ولكنه أخي ! . . أخي الذي خلقته بعدي . . أخي الشاب . . أخي الحبيب . . يصدمه القطار . . بلا رحمة ولا شفقة . .

ربي ! . . كيف أجده ؟ هل مات ؟ أم بتر له عضو واحد فلا يزال على قيد الحياة ؟ . . . وهل هو حقاً أخي الذي صدمه القطار ؟ . أم هو شاب آخر . . اللهم لطفك ورحمتك ، بالناس جميعاً ! . .

يا إلهي ! . . إنك تعلم أن أفئدتنا ما زالت تندب أختنا

منذ بضعة أشهر ، وأن أمنا قد تقرحت عيناها من فرط البكاء .. وان أبانا ما فتىء حزيناً كئيباً ...

رباه .. لطفك ورحمتك .. إنني مؤمن .. فلا شأن للموت بسن الانسان .. فهو يدرك الرضيع والكهل .. وإنما هو قضاؤك سبحانك إذا أردت شيئاً ، أن تقول له كن فيكون ...

وعلى بعد بضعة أمتار لاحت أمامي زمرة من الناس يتزاحمون حول جسد ملقى على الحشائش بجانب قضبان القطار ..

وتقدمت وأنا ألهث نحو الزحام .. ولمحت في الجسد الملقى وجه أخي .. وذراعيه .. وساقيه .. وبقية جسده ، لم يبتر منه شيء .. ولم يمس عضو بسوء ..

ولكن دمائي جمدت في عروقي .. واختلج قلبي في نبضه حين دنوت من الجسد فسمعت شخيراً عالياً يخرج من حلقه .. والدماء تتدفق بشدة من أذنيه .. وأنفه .. وفمه ..

عفواً .. ففظاعة المنظر لا تدع لي مجالا لوصفه ، فكل كلمة أكتبها عنه تحز في صدري حزاً .. وتملأ

فؤادى حسرة وأسى . . وتفتح الجرح الشخين الذى لما يندمل منذ ذلك اليوم .

وأخذت رأسه على حجرى أناديه فى لهفة . . ولكن الصدمة الشديدة فى خلف رأسه . أفقدته حواسه . . فلم يجب . . ولم يفتح عينيه . .

وظللت حائراً فيما أفعله لأوقف الدماء النازفة والشخير المؤلم . . حتى وصلت سيارة الأسعاف

وحملوه الى داخلها . . وجلست بجانبه أقرأ فوق رأسه آية الكرسى وسورة الاخلاص ، لعل فى ذلك نجاة له أو حياة

وفى إحدى قاعات القصر العينى دخلت بثيابى المصبوغة بدمائه الطاهرة الشهيدة ورأيته ممدداً عارى الجسد ، فوق منضدة طويلة عالية ، يحيط بها ثلاثة من الأطباء . . يراقبون حركة التنفس .

ولما كان قضاء الله تعالى فوق كل قوة أخرى . . ، فقد تلاشت أنفاس أخى المسكين ، وسكن نبضه ، وذهبت روحه الشهيدة الى العالم الآخر . . المجهول . .

لقد توسلت الى الأطباء أن يبذلوا مافى وسعهم لانقاذه ، ولكن أحدهم أجابنى أن مقدار الدماء التى

أنزفت منه كبير ، وأن الصدمة خلف الرأس قد حدثت في مخه ارتجاجا شديداً تستحيل معه عودة الادراك والحس.

واقتربت من جسد أخي العاري .. فهمست على رأسه الفاتحة ، وغادرت القاعة خافض الرأس . . أكاد لا أصدق أن ما حدث كان حقيقة واقعة . .

- لا حول ولا قوة إلا بالله . في ساعة واحدة . . فقدت أخي . . ورأيته يتلاشى بين يدي . . وبين يدي الأطباء . . وليس في وسع أحد أن يؤخر ما قضت به ارادة الله العظيم .

* * *

وأمام أبواب القصر وجدت أبي وحوله بعض الأصدقاء ، ينتظرون حكم القدر على لساني . . وكنت في ثيابي الملطخة بالدماء وخطواتي المرتعشة ووجهي الشاحب الممتقع أبلغ معبر عن قضاء الله ، فانطلقت الدموع من عيني أبي في وجوم وأخفى وجهه بين يديه . .

وفي احد أركان بناء جديد مجاور . . ارتديت ثياباً وحذاء أحضرها لي من البيت صديق ، ثم عدت فجلست بجانب أبي أعزيه ، وأذكره بوحدة الأجل . ونفاذ القضاء . . ووجوب التسليم لله . .

وفى صباح اليوم التالى أعد الكفن والنعش، وذهبت لاستلام الجثة من داخل القصر، لتشييعها الى مقرها الأخير، وقد تخلف أبى عن الحضور، إذ اعتراه من فرط الحزن اضطراب عصبى شديد

وألححت عليه بالبقاء فى البيت، لتجوز الحيلة على أمنا المسكينة، فقد أخبرناها أن أخى لا يزال يعالج وأن الزيارة ممنوعة وقتئذ ...

***

... قف شعر رأسى فزعاً حين خطوت الى تلك الغرفة المروعة .. غرفة الجثث، لأستلم جثة أخى. فلقد تراصت أجساد الأموات. عارية صفراء اللون على أرفف طويلة داخل دولاب كبير. يطلقون عليه اسم «الثلاجة»

ولقد كدت أخفى بصرى بيدى وأولى هرباً من شدة فظاعة ما كنت أرى هناك .. لولا أن تقدم الرجل المختص، فحمل جثة أخى برفق بمعاونة «الحانوتي» الذى باشر بعد ذلك إعداد النعش ...

يا إلهى !.. كم فى هذه الدنيا من مصائب وأهوال .. ومع كل ذلك يتمسك الانسان بها، وبأمورها، ويحارب من أجلها.. فما أعلى حكمتك .. وما أعظم تدبيرك ...

وسار خلف النعش عدد غير يسير من المشيعين . . وكأن الله تعالى أوحى الى بعض المارة أن من يرقد فى ذلك الكفن شهيد ، فكانوا يتقدمون واحداً بعد الآخر ليشتركوا فى حمل النعش برهة من الزمن . . ثم ينضمون الى زمرة المشيعين . . .

. . . وهناك وراء سفح القلعة . . بين قبور المماليك . ووري أخى التراب مأسوفاً عليه . . ولقد كان يتجول فى تلك البقعة عينها منذ يومين ، مع بعض من أصدقائه خرجوا فى رحلة الى تلك الأمكنة ، فما أقساك يادهر . . .

* * *

واليوم وقد انقضت أربع سنين على تلك الحادثة المروعة . . لم يمض خلالها نهار واحد . . . إلا دعوت الله فى كل صلاة ، بالرحمة والسعادة لروح أخى فى العالم الآخر . . . وإنه ليخيل الى ، أن الله كان راضياً عن هذا الشقيق ، إذ قد أوحى الى عبد مسلم من عباده أن ينشئ عند البقعة التى سقط فيها أخى مضرجا بدمائه . . مصلى ليذكر فيها اسم الله قبل طلوع الشمس وبعد الغروب . . .

ثورة فى سجن

شرر من أتون الجهاد القومى
فى سبيل الاستقلال . . .

فى أحد أيام سنة ١٩١٩ ، تلك السنة التى سطرها المصريون فى صحائف التاريخ بأحرف من دماء شهدائهم ونور وطنيتهم واخلاصهم ، كان صوت الحماس القومى يسمع صداه فى قرية من قرى القطر ، اشتهرت بسجنها الكبير ، الذى يستغرق نصف مساحتها . . والذى يعتبر بحق أكبر سجون مصر وأهمها شأنا .

خرج صبيان طرة من مدرستهم الأولية ، مضربين عن حضور الدروس . . وتجمعوا عند شاطىء القناة ليظهروا حماسهم للوطن المسكين . . وليشتركوا فى حمل شعلة الجهاد التى أضاءت أنحاء مصر فى ذلك الحين ، ولم يكن هؤلاء الصغار ليعبأوا بالحشد الكبير الذى جمعته السلطة المحتلة وقت ذلك فى شمال البلدة من جنود المستعمرات ـ هنود واستراليين ـ بكامل أسلحتهم

ومدافعهم ، متحفزين لقمع حركات المصريين ، ورد كيدهم فى نحرهم ، برصاص المدافع السريعة والبنادق الفظيعة .

وتعالت فى الجو تلك الصيحات المقدسة « يحيى الوطن » و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » و « لتحيى الحرية » ترددها أصوات الصغار فى حماس زائد ، ويحملها الهواء ، فيصعد بها نحو السماء . .

ولم تكن القوة المرابطة لتعير هذه الهتافات الصبيانية اهتماما ، ولا تقيم لها وزنا ، إذ ما قيمة هؤلاء الصبية الذين لم يدركوا بعد ما هو الوطن وما هى الحرية ، ولكنها لو علمت مدى النار التى أشعلتها تلك الكلمات فى يومين اثنين ، لما توانت لحظة واحدة فى تفريق المظاهرة الصغيرة قبل أن تجول فى أنحاء القرية من الصباح إلى المساء .

* * *

لقد كان السجن يمتد حذاء شاطىء النيل إلى مسافة بعيدة ، من شمالى البلدة إلى جنوبها ، وكان بين جدرانه يومئذ ما يقرب من ثلاثة آلاف مسجون ، غير عدد كبير من الحراس والموظفين والضباط والمأمور والمدير ،

وكان الأخير انجليزى الأرومة ، قاسى القلب ، ممن يعتقدون أن خير ما يعامل به الشرق هو الاستعباد والاذلال ، ولذا فان كل من كان فى السجن حينذاك ، كان يهابه ويخشاه ويكن له حقداً شديدا وكراهية بالغة ، أما مأمور السجن فكان مصريا ينتصر فى كثير من الأحيان للمظالم التى يشكوها اليه الموظفون أو المسجونون ، ويبذل جهده فى حدود سلطته ، وما أضيق ما كانت ، لانصافهم وتخفيف ويلاتهم وما يلاقون من قسوة المدير وخشونته .

وسمع المسجونون أن فى البلاد حركة وطنية كبيرة . وأن نيران الحماسة مشتعلة فى كل مكان فكانوا هم الآخرون يجتمعون عصر كل يوم ، بعد عودتهم من قطع الأحجار ، فى دنياهم البائسة ، وسط أفنية « عنابرهم » فيهتفون بأصوات كالزئير . هتافات عالية بحياة الوطن والحرية ، وحياة المأمور . . أما سقوط مدير السجن فكان مستتراً مفهوماً .

وكانت تلك الشرذمة الضئيلة من صبيان المدرسة ، حين يجوبون الطرقات هاتفين صائحين يمرون بجانب جدران السجن وهى تمتد حذاء «العنابر» الأربعة الكبيرة

التى يأوى اليها المسجونون بعـــد عمل اليوم المضنى ، فيكثرون ، من خبث زعيمهم الذى يصيح لهم فيرددون ، من الهتاف : « لتحى الحرية » ، « الحياة هى الحرية » ، « الحرية أو الموت »

وفعلت تلك الهتافات فعلتها فى أفئدة الرجال فردّدوها وهم يزأرون كالأسود من وراء قضبان النوافذ الحديدية ، وكم كان بودهم أن تنثنى هذه القضبان بين أيديهم ، فينطلقون انطلاق الوحوش فى الفلاة ، سواء كان الموت من نصيبهم أو الحياة . . .

وبلغ المدير ما يحدث من هتاف للحرية وللوطن داخل السجن . فأمر بزيادة ساعات العمل ، وبتأخير الصعود إلى العنابر . . . وكانت تلك الأوامر بمثابة وقود ألقى فى النار ، فزادها حرارة واشتعالا ، وخاصة عندما حضر مدير السجون العام ، وهو انجليزى أيضاً ، فأمر بجلد عام شمل عدداً كبيراً من الهاتفين والمتحمسين .

وعند ذلك بدأت الأمور تدبر فى الخفاء ، وساد الهدوء ، هدوء الاستعداد والتآمر ، وفى تلك الأثناء وصل إلى مسامع مدير السجن أن أناساً من أهل البلدة

يحوزون الأسلحة وأنهم يدبرون معركة عامة ضد قوة الاحتلال المرابطة وسط الطريق بين طرة والمعادى ... ومع سخافة هذا البلاغ ، ومنافاته للمعقول ، إذ أن القوة المحتلة كانت مسلحة بالمدافع السريعة التى تحصد الأرواح حصداً ، فقد صدقه الرجل وأسرع فى الاتصال برئيس القوة ، وانتهى الرأى أخيراً إلى إجراء تفتيش عام على كل بيت وكل رجل وامرأة .

وكان منشىء الخبر خبيثاً إلى حد كبير ، فقد أراد إلهاء المدير عما يحدث سراً بين جدران السجن ، وتحويل اهتمامه إلى تلك الأمور الشاغلة .

وفى صباح اليوم التالى رصت المدافع حول البلدة من كل صوب ، وكانت تلمع فى أشعة الشمس فتبعث الرعب والجزع فى النفوس ، وتقدم الجنود شاكي السلاح الى كل بيت يخرجون أهله الى ميدان كبير ، ولم يبد الناس أى مقاومة خوفاً على أرواحهم وأرواح أهليهم . .

وفى المساء عاد الجنود بخفى حنين ، وفك الحصار عن البلدة ، فقد راح التفتيش هباء ، وكان البلاغ ملفقا من أساسه .

وفى عصر اليوم التالى فوجئت هيئة السجن والقوة المحتلة بانطلاق القنبلة التى لم يسمع بمثلها فى البلاد ، انطلقت على حين غرة فأحدثت حيرة واضطرابا ، وشرا مستطيرا .

* * *

دخل الحارس المنوط به غذاء الظهر ، يتبعه مسجون يحمل « قزانا » كبيراً قد ملىء بالعدس الساخن ، يتصاعد بخاره فتنتشر رائحته فى المكان ، وتقدم الاثنان الى وسط الفناء الداخلى للعنبر ليأتى كل مسجون بانائه فيملأه ، ثم يذهب الى موضع الخبز فيتناول رغيفاً ، ويجلس على الأرض فيلتهم أكلته بنهم وشره ..

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل قد أعطيت الاشارة اللازمة الى حامل العدس ، فأسرع اليه زميل ، وعاونه فى رفع « القزان » وإفراغه فى لمح البصر على رأس الحارس المسكين حتى آخر نقطة منه ، وسقط الرجل مغشيا عليه . ثم حمل الى ركن بعيد ، بعد أن جرد من مفاتيح الأبواب .

وانقضت برهة ردت فيها أبواب العنبر على مصاريعها وتدفق منها سبعمائة رجل وخمسون ، كل منهم يحمل بين جنبيه عزما يثنى الحديد ويتحدى القدر ..

ولم يفطن أولو الأمر الى تلك المصيبة الهائلة ، إلا بعد أن كان آخر رجل فى طريقه لمغادرة جدران السجن، وتنسم هواء الحرية الذى يهب فى الخارج .

ومن عجب أن واحداً من الحراس الذين وقفوا على الأسوار لم يلاحظ أحداً من هؤلاء الهاربين وهم يقفزون من جدار الى جدار ثم يطلقون لساقيهم الريح ، أو يلقون بأنفسهم فى ماء النيل ، والمعقول فى ذلك أن الهاربين قد اختاروا طرقا بعيدة عن نقط الحراسة ، قدر الامكان .

وبعد غفلة من الزمن انطلقت أبواق الحراس وصفارة السجن الحادة تنذر بوقوع الطامة الكبرى ، فكان موقفا رهيبا عجيبا ، جاء فيه الحراس من كل صوب وحدب فى لمح البصر يحمل كل منهم سلاحه ورصاصه ، ولا يهمه بعد ذلك فى أى هيئة يبدو . فلقد حكم الظرف على بعضهم بمغادرة الحمام دون ثياب بالمرة محتفظا ببندقيته وكيس الرصاص ، ومنديلا يستر به عورته ، مسرعا يلهث إلى الصف ليتلقى التعليمات ، وجاء البعض الآخر بالجلباب دون الحذاء ، أو حافى القدم وباللباس الرسمى ، وقليل منهم كان كامل الثياب .

وألقيت التعليمات على الجمع الأول من الحراس فانطلقوا نحو الصحراء مسرعين ، وذهب فوج آخر إلى ناحية النيل ، وثالث إلى قلب البلدة ، ورابع إلى أبواب « العنابر » الأخرى ليحول دون هروب الباقين ، وأعطى السجانون هراوات ضخمة يرهبون بها من يعثرون عليه ويعيدونه إلى السجن مرة أخرى ..

وأخطر مدير السجن بالأمر فجاء من بيته مهرولا بثياب النوم يركب « البسكليت » ويقبض على مسدسه ، تكاد الدماء تتفجر من وجهه ورقبته غيظا وكمدا ، وكان أول مافعل أن طلب نجدة من قوة الاحتلال ، فجاءت على عجل ورابطت أمام السجن احتياطا للظروف .

أما الهاربون فقد عرف بعضهم كيف يختفى وخرج الآخر دون أن يرتب لنفسه ملجأ أو مهربا ، قفز بعضهم إلى النيل وظلوا يسبحون حتى إذا بلغوا قاربا صعدوا اليه بملابس السجن فتوسلوا إلى من فيه أن يعطيهم ثيابا أو مخبأ فاذا عارض انقضوا عليه واغتصبوا مايريدون

وانهمر الرصاص كالمطر على هؤلاء . سواء منهم السابحين أو المختبئين فى القوارب ، فلم يصب منهم من

أحد، إلا قاربين اختل توازنهما ونفذت اليهما المياه . أما السابحون فكانوا يغطسون فيتجنبون الاصابة .

ولجأ بعض الهاربين إلى قبور الموتى فى شرقى البلدة فاختفوا فيها ودفن بعضهم بعضا ليخفوا معالم الأمر ، وكمن من بقى منهم فى المبانى المحيطة بالقبور ، وقد كان من اليسير العثور على هؤلاء بعد قليل .

وأسرع منهم فوج الى قلب البلدة فهاجموا بيوتها يبتغون مخبأ ويكتمون صراخ النساء الخائفات بأيديهم ، مهددين إياهن بالقتل إن أخبرن بوجودهم بغرف البيت ، أما من كان هناك من رجال فأحسنوا بهم صنعاً إذ أعطوهم ثياباً وساعدوهم فى إتمام كسر الحديد المعلق بأقدامهم ثم أخرجوهم قبل وصول الحراس .

وهوجمت البيوت وفتشت من جديد ، وعثر على بعض الهاربين قابعين فى الأركان المظلمة وتحت أكوام الوقود وفى منحنيات السقوف والجدران .

أما من كان منهم قادراً على العدو السريع فقد انطلقوا الى التلال والوديان يتعثرون فى الصخور والأحجار حتى بلغوا محاجر البلدة حيث توجد المغاور الواسعة العميقة ،

يقال إن احداها توصل الى السويس ، فألقوا بأنفسهم فى الظلام يسيرون على غير هدى ، يتخبطون فى الجدران ، ولقد ظل أمر هؤلاء مجهولا حتى عثر على هيكل عظمى لأحدهم بعد بضعة سنين عند وقوع حادثة هرب أخرى اختفى فيها الهاربون فى المحاجر ، وجاء حراس السجن يفتشون هذه المغاور بالمصابيح .

وكان المدير يمتطى صهوة جواده كل صباح ومعه كلبه الذكى يتبعهما بعض الحراس على الجياد ، فينطلقون نحو الصحراء ، وتسير الجياد خبباً فتضرب الثرى بحوافرها شديداً ، فاذا انهارت من تحتها الرمال ترجل الحراس فحفروا فى الأرض لعل هارباً يكون قد دفن نفسه هناك ، وقد أدت هذه الطريقة الى العثور على ثلاثة من المساكين وجدوا فى حالة يرثى لها من الاختناق .

ولقد بلغت المعاملة التى كان يلاقيها المقبوض عليهم عند باب السجن مبلغاً كبيراً من القسوة والوحشية ، فان غيظ المدير فاض عليه ، إذ أى حادث أوضح من هذا دليلا على سوء الادارة وفساد النظام ، فكان اذا جاء أحد الحراس بهارب لا يزال على قيد الحياة ، أشار المدير الى

نفر من السجانين قد تحفزوا عند باب السجن ، فيتلقونه ويشبعونه ضرباً عنيفاً بالهراوات الضخمة ، حتى يسلم المسكين الروح من شدة الألم ، ثم يأمر المدير بالقائه فوق زملائه على العربة ، حتى اذا اكتمل عدد الجثث عشرين أمر بهم أن يحملوا الى أحد الوديان فيلقون فى حفرة تحفر لهذا الغرض ، دفعة واحدة ، ثم يهال عليهم التراب .

ولم يكن أحد هؤلاء السجانين يجرؤ على عصيان أوامر المدير ، فقد كان فى هياج عصبى كبير ، مسدسه بيده يطلق منه الرصاص ، يخترق رؤوس الجثث إمعاناً فى الانتقام من هؤلاء الأموات . . ولقد جىء باثنين من الهاربين لم يمسهما الضر من الحراس بعد ، فأمرهما أن يدخلا السجن ، وكانا يريان جلياً ما ينزل باخوانهم داخل الباب ، فأبيا الدخول طالبين الموت حيث كانا ، ولما أظهرا عصياناً شديداً وأرادا العدو ، لم يجد المدير بداً من انهاء حياتهما بطريقة مختصرة ، لم تكن لتشفى غليله ، بأن أطلق على رأسيهما الرصاص فخرا صريعين الى الأرض . . .

وقد ظلت البلدة أربعة أيام يملأها دخان البنادق وتدفن فى وديانها جثث القتلى ، ويحاصر أهلها وبيوتهم

من كل ناحية بواسطة جنود السلطة العسكرية، حتى هدأت العاصفة تماما بعد أسبوع ، وأمكن الناس أن يتجولوا فى الطرقات بلا خوف ولا عناء .

ولم تقتصر وسائل البحث على ذلك فحسب، بل تناولت نواحى القطر المصرى كله فيما بعد ، وخصوصا تلك البلاد التى كان يستوطنها الهاربون قبل دخولهم السجن ، وقد ضبط منهم العدد الكثير بهذه الطريقة يختفون بين أهليهم ، أو فى بلاد غير بلادهم .

والحق يقال إن الهارب من وجه القانون والعدالة لا ملجأ له مطلقا يجد فيه اطمئنان النفس أو يتذوق به لذة الحرية ، مادام القانون يطارده حتى يقبض عليه،ولو فرض أنه وفق الى مخبأ حصين ، أو ملجأ أمين ، فانه سيظل طول يومه وليله يترقب ويحترس ، إن أغمضت عين له ظلت الأخرى يقظة وجلة ، حتى تمسكه يد العدالة ، ويساق الى السجن مرة أخرى ليذوق عذابا مضاعفا . .

ولقد كان هذا الحادث الجلل ، باعثا على التفكير من جديد فى قوانين السجون وأنظمتها ، وطرق معاملة المسجونين ، حتى أتى الوقت الذى فيه غادر العنصر

الانجليزى مصلحة السجون فأتيحت الفرصة للتوسع فى الاصلاح ، وشموله دقائق الأمور ، فعمّ النظام وشمل الهدوء ، واطمأن السجان والمسجون ، وانعدمت حوادث الهرب ، فلم نعد نسمع بحادثة واحدة من زمان بعيد ، وواضح أن الفضل فى كل هذا راجع الى العقل المصرى وحكمته ، وأنه وحده هو الذى يمكنه تفهم نفسية المجرم المصرى ، وتبين وسائل ترويضها وتهذيبها .

إبليس ، والشيخ سيف

لا تحسبن أيها الظالم أن
القدر فى غفلة عنك

لست أدرى كيف كان الشيخ سيف الأعمى يؤدى تلك المهمة الشاقة الغريبة ، فى الهزيع الأخير من كل ليل، فلا يدع شارعاً أو حارة أو ممراً فى البلدة ، إلا دب فيه ، قبل الفجر بساعة أو يزيد ، يصيح بملء صوته فى نغمة حلوة محبوبة مردداً عبارات التذكير ، والحض على التقوى والصلاح .

ويظهر أن الأمر كان يستوى عند هذا الشيخ ، فالنور عنده كالظلام ، والقيظ كالزمهرير ، وعصاه تقوده خلال القرية ، حتى إذا عسعس الفجر ، وتنفس الصبح ، لم ير له فى الخارج أثر ، وهو طول النهار فى عقر داره قعيد .

وكم كانت صيحات هذا الرجل وتراتيله تقض مضاجع الناس ، وتجلب لهم الفكر الحزين ، والهم الدفين، فى ذلك

الوقت الذي يحلو فيه النوم، وتنجلي فيه الأحلام .. ولولا ما كانت تنطوي عليه عباراته من تذكير بأمر الدين، والتقوى والصلاح، لكان نصيبه منهم السخط والايذاء.

***

... في الساعة التي تسبق الفجر يتقلب النائم على جنبه قلقاً فيسمع صوتاً نائياً يدنو بطيئاً حتى يملأ الآذان، فيبدد السبات من الأجفان، ويعيد إلى العقل إدراك اليقظة، ثم يملأ الفؤاد حسرة وعبرة ...

« .. أيها المؤمنون .. الايام تفوت، والناس تموت، ولا يبقى غير وجه ذي العزة والجبروت ... »

« ... أيها المسلمون .. من عمل صالحاً فلنفسه. ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون ... »

« ... الدنيا ساعة، تمضي فتأتي الساعة، ولا مجال يومئذ للتقوى ولا للطاعة ... »

« ... الدنيا ممر، والآخرة مقر، فأطيعوا الله ما أمر، وانتهوا عما عنه نهى وزجر ... »

« ... أيها المسافرون .. تزودوا فالرحلة تهون، والأجل يخون ... »

« ... أيها المؤمنون .. الصلاة خير من النوم ... الصلاة خير من النوم ... وما أدراكم أن لكم فى الحياة غير اليوم ... »

***

. . . . .

أعوذ بالله من ذلك الشعور الذى كان يستولى على الانسان حين يسمع هذه الألفاظ تسبح فى ظلام الليل ، وتتردد فى سكونه .

إنه كان شعور الجزع والتشاؤم ودنو الأجل ، واحتقار الدنيا وأمورها .. ومع ذلك فقد كان هذا التحذير المؤثر يذكر المرء بحقيقة الحياة ، ويرهف حواسه ، ويحثه على التقوى وفعل الخير ، وخدمة الانسانية ، وأداء ما أوجبه الله

ولكن عبارات الشيخ سيف وتراتيله لم تصبح غريبة على الأسماع بعد بضعة أسابيع ، إذ حفظها الناس صغيرهم وكبيرهم ، ورددها الأولاد مقلدين ، وضؤل اهتمام النائمين بها .

أما الشيخ الكفيف فكان يعود بعد صلاة الفجر بالمسجد إلى حجرته ، التى تقوم منفردة بجانب أحد البيوت

فيقضى سحابة النهار هناك ، لا يتناول من الطعام غير مايجود به عليه الجار ، من بقية قوت اليوم السابق ، ولا يقوم بعمل غير الصلاة والجلوس فى الشمس ، حتى إذا جاء الليل أخذته سنة من النوم حتى السحر . ثم يتناول عصاه ويخرج لأداء مهمته المقدسة .

ومذ حل المسكين بالبلدة ، وأهلها عنه لاهون ، لا يفكر أحدهم فى الاحسان عليه بلقمة أو قرش وتدريجع ذلك إلى جهلهم بحاله ، وعدم رؤيتهم له ، وكل مايعرفون عنه هو اسمه وصوته وعباراته .

وظلت البلدة تسمع صوت الشيخ قبل الفجر كل ليل ، حتى انقطع فجأة عن عادته ، ولم يجد يسمع له نداء ، وبدل أن يهدأ الناس لتلك الظاهرة ، أو يستريحوا لزوال باعث هام من بواعث قلقهم ، بدأوا يتساءلون عن داعى اختفائه ، وأدركهم فى ذلك شك وحيرة ، ولكن العيد كان على الأبواب ، فلما جاء كان شاغلا لهم عن أمره .

وعند انقضائه بدأ الكل يتساءل عما وقع بالشيخ ، وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى عرف كل بيت وكل فرد ، أن الواعظ الصالح نزيل القسم ، وقد حكم عليه بالسجن أسبوعين . . !

لم يكن جسد الشيخ قويا مثل نفسه فيقدر على احتمال الجوع والبرد دون أن يعتريه الضعف والهزال ، ولم يكن مايتناوله طول اليوم من بضعة لقمات كافيا لبعث الحرارة فى أنحاء جسده ، ودفع الدم فى عروقه .

فما كادت معدته تشكو من الجوع حتى تخاذلت ساقاه وعجز عن اتمام رسالته التى يقوم بها فى كل ليلة ، وأقعده الضعف فى حجرته ، فريسة للحرمان من القوت ، جهلا من الناس.

وانقضى يومان ومعدة الشيخ تكاد تصرخ فى جوفه من فرط الجوع ، واللقمة التى يتناولها من الجار لا تطفىء الجذوة بل تزيدها اشتعالا .

وجاء عيد الأضحى . وشاء القدر أن يتهكم من الشيخ فأوصل الى مسامعه وأنفه أصوات الناس يتحدثون عن الكباش المذبوحة ، ورائحة الشواء والقلاء ، ولو ان عينيه سليمتان لذرفتا سخين الدمع حسرة على حاله ، ولهفة على الطعام .

وإلى هذه الدرجة أيضا لم تزل نفسه تأبى عليه التصريح بحاله إلى جاره ، الذى كان متنعما بالنسبة له . فقيرا بين سائر الناس .

ولم تكن عند جاره ذبيحة فيحسن عليه بشيء منها. بل إن الجار غادر بيته ورحل إلى بلد مجاورة ليزور أهله وعشيرته. زيادة في سوء حظ الشيخ العاثر.

وإذن فلم يبق أمامه غير أمرين، إما الموت جوعا، أو أن يجر نفسه جرا الى الخارج فيخبر الناس بأمره فيجود عليه المحسنون بما يملأ معدته، وينقذه من مخالب الجوع والهزال

ولكن.. أيفعل ذلك وهو الواعظ الذى ينصح الناس بالزهد فى الدنيا ومظاهرها، ويحضهم على طاعة الله وتقواه، وبذلك يؤدى رسالة شريفة مقدسة؟. أيقول للناس أنه جائع وأنه يريد طعاما ليأكله؟.. كلا! هذا لن يكون.. أفضل له أن يموت جوعاً من أن يحط من قدر نفسه ورسالته التى يؤديها بتلك الفعلة الشنعاء!

وهكذا جلس الشيخ يقلب أمره حائرا، حتى تاه بعد قليل فى سبل التأمل والتفكير فعجب كيف تتركه الأقدار وحيدا بلا قوت، وهو الرجل الذى يسعى منذ سنين فى فعل الخير ونصره، سعياً يلاقى فيه من العناء ما قد لا يماثله عناء، إذ مَن من الناس يفعل فعلته فيخرج فى ظلمات

الليل يشقّها بعصاه ، ويواجه هواء السحر الرطب بصدره ، ويصيح فى النائمين مرتلا عظاته ونصائحه ، فيترك فى نفوسهم أبلغ الأثر .

ولكن .. مهلا ! . . كيف يجرؤ على لوم القدر فيما أنزله به ، وكيف يعجب من انكار الدهر له وهو الذى يستحق كل ذلك وأشد منه ؟ ! . . . فهل نسى يوم أساء الى عرض أخيه وذكراه ، فبغى على زوجته الأرملة ، وآذى أولاده فى أموالهم ومصالحهم ، فأذاقه الله شر العذاب ، فأفقده ما غنم من مال ومتاع وأنزل على بصره غشاوة ، فعدم النعيمين ، نعيم الجسد ، ونعيم النظر ! . . ولكنه تاب عن اقتراف الاثم وفعل السوء ، واستغفر الله كثيراً ، وكفر عما أتى تكفيراً عظيما ، وطلب الصفح من المرأة التى ظلمها والأيتام الذين آذاهم ، فصفحوا عنه جميعا وسامحوه ، واستغفروا الله له . . ومنذ سنتين وهو مكرس نفسه لأداء تلك الرسالة الشاقة ، لاينى ولا يهن عزمه ، ولا يطمع من الدنيا فى شىء غير لقمة تقوي بها ساقاه على السير ، وفراش يريح عليه جسده قسطا من الليل

أما تلك اللقمة فقد غابت عنه طويلا وأمعنت فى الغياب ، وهاهم الناس غارقون فى لحوم الضأن وأطباق الفطير ، بينما هو فى لهفة على كسرة من خبز والذنب فى ذلك كله ذنبه وحده ، فالناس لم يحرموه لحما أو فطيرا أو خبزا ، ولكن شعور الاباء والكرامة هو الذى يملأ فؤاده فيحول بينه وبين الاستجداء .

. . وكان ابليس مارا بتلك الجهة ، فخطر له أن يرى هذا الواعظ العجيب ، لعله واجد فيه هدفا لسهم من سهامه

ودخل زعيم الشياطين فى هدوء ، فوقف بجانب الجدار يستعرض مخيلة الشيخ وأفكاره ، ثم انطلق بعد برهة دون أن يفعل شيئا .

***

وإذ بلغ القنوط من الرجل الجائع الضعيف مبلغه . وأيقن أن كل من حوله من الناس فى شغل بالعيد وشئونه وأنه لا مناص له من الهلاك بعد عذاب أليم ، عول على الصبر والتحمل الى النهاية ، ومقاومة كل ما تشكو به معدته وأعضاؤه من آلام .

وفجأة خيل اليه أنه ليس بوحيد فى حجرته ، وأن

قريبا منه يوجد مخلوق تتردد أنفاسه فى سرعة ظاهرة فمد يده فى عجله يتلمس ما أمامه ، فاذا بحيوان صغير له رأس ضئيل مستطيل وأربعة أرجل وذيل قصير ، وله شعر فوق جلده كشعر الماعز ، وهو جدى صغير بلاريب ! !

وذهل الرجل ذهولا عظيما لهذه المفاجأة ، إذ أى معنى يتطرق الى فؤاده فى تلك اللحظة غير معنى الجوع والشبع ، وأى شهوة تثور فى نفسه غير شهوة الأكل من لحم هذا الحيوان الصغير .

ولكن ! . . أيمكن ذلك ؟ أيعقل أن تكون هنالك قوة خفية دفعت بهذه الأضحية بين يدى الشيخ رحمة به وبحاله ؟ وهل يجوز أن تكون تلك معجزة الرسول ابراهيم وابنه يكررها الزمن ؟ ربما ! ولكن فى شكل آخر ، لا يحمل معنى سامياً ولا يضرب للناس مثلا فى جزاء الطاعة والاخلاص ، وانما على طريقة أخرى ، هى الى شهوة النفس الأمارة بالسوء أدنى سبيلا !

وتراجعت يد الشيخ بعيداً عن ظهر الحيوان الذى وقف على مقربة ساكناً هادئاً كأنما هو مسحور ، أو مساق الى وقفته ، شاعر بقرب منيته !

وكاد الرجل يعود الى رشده ويدرك أن ما يملأ رأسه من الوساوس وما تحدثه نفسه الأمارة إنما هو من فعل الشيطان ، ولا يتفق مع الخير فى شىء .

وبينما هو يمعن فى التأمل والتبصر إذ انتفض مضطرباً حين سمع اسمه ينادى من داخل الحجرة - وكان ذلك ابليس - واقفاً عن كثب ، ينصب الشباك !

— يا شيخ سيف !

— من هذا ؟

— أنا صديقك يا شيخ ، وإنى أرى على وجهك دلائل التعب الناشىء عن الجوع الشديد ، ولقد جئتك بهذا الجدى السمين لتأكل من لحمه الشهى اللذيذ ، فيعود اليك نشاطك ويذهب عنك الألم والضعف .

وحار الشيخ فى أمر محدثه ، ومعنى قوله ، ولكنه أدرك بعد برهة من التفكير ، الى أن مخاطبه لا بد وأن يكون من المحسنين الفضلاء ، فخاطبه بقوله :

— هذا كثير منك أيها السيد الكريم ، ولست أنا فى حاجة الى هذا كله ، ويكفينى من اللحم قطعة ، ومن الخبز كسرة ، لأشبع معدتى ، وأشد أعصابى ، ثم إنى كما تراني

غير بصير ، فكيف لى السبيل الى ذبح هذا الجدى وسلخه وشيّه أو سلقه ! ؟ . .

وشعر ابليس بالخيبة تتسرب الى حيلته ، فقال فى حنان متصنع :

— ما أقنعك يا شيخ كريم ! وما أشدك عناداً للشهوات ! إن لحم الجدى الصغير الذى تأبى قبوله لن يكفيك أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ، سيعاودك بعدها الجوع ، وما أعجب إلا لرفضك رزقاً كهذا ، أما إنك غير بصير ، فليس أيسر من أن أقوم أنا بمهمة تحضير الجدى وإعداده لك ، ولن يستغرق ذلك منى وقتاً طويلا !

وعند ذلك انطلق الشيخ داعياً له بقوله :

— جزاك الله خيراً أيها المحسن الكريم ، فأنت رجل فاضل رحيم بالضعفاء ، بارك الله فيك وعليك !

ولم يجب ابليس بشىء بل ابتسم ابتسامة الظفر قائلا فى نفسه « أنت أول رجل يدعولى هكذا ! »

وذبح الجدى وسلخ ، ثم قطع لحمه قطعاً صغيرة ألقيت فى إناء الشيخ الفخارى ، ثم أوقدت فى أحد الأركان نار قوية وضع فوقها الاناء .

وبعد ساعتين كان الشيخ سيف يجلس وحيدا وهو أسعد مخلوق على وجه الأرض إذ ان كل ما يتمناه كان بين يديه ، وبين أسنانه .

* * *

ولكن هذه اللذة ، شأن كل اللذات التى يأتى بها الشيطان كانت بنت لحظتها ، واعقبتها الحسرة والندم والعذاب ، فلقد طرق أذن الشيخ وهو يمضغ فى قطعة من اللحم الشهى ، صوت امرأة تنادى قائلة :

— يا أولاد الحلال ! . جدى صغير ضايع من الصباح وحلاوته أحسن منه ! ! .

. . . .

. . . آه . . ! لقد ارتجف الشيخ لهذا الخبر الأسود

. . . جدى صغير . ! ضايع . . ! من الصباح ! ! .

وقفت أسنانه عن المضى فى المضغ ، وعادت يده فارغة بعد أن ردت قطعة اللحم إلى الأناء . . ! ها هو يأكل لحم جدى صغير مثل الذى تنادى عليه المرأة ، وقد جاءه الجدى منذ الصباح فهل يمكن أن يكون هو الجدى المفقود . ! ؟

آه يارب ! . ولكن كيف يكون ذلك . ؟ لقد جاء رجل محسن كريم فوهبه الجدى ، وذبحه له وسلخه وسلق لحمه ثم جاءه به فى إناء ليأكله !

فهل كان هذا الرجل محسناً حقاً ، أم انه كان يحفر له هوة ليقع فيها ! ؟

اللهم إن كانت الأخرى ، فلقد وقع فى الهوة ، وثبتت عليه السرقة ، وكان من المجرمين ! وماذا هو فاعل الآن والجدى مذبوح فى حجرته ، والمرأة التى تنادى على جديها المفقود هى جارته الرابعة ، ولا بد إذن من اكتشاف أمره !

يجب أن يفعل شيئاً ! يجب أن يزيل معالم الأمر ، فيخفى الدماء التى سالت على أرض الحجرة ، ويخبىء اللحم فى مخبأ خفى ، وينظف مسكنه من كل دليل أو اثبات !

وقام المسكين ، ولما يفارقه الضعف والهزال فجمع كل ما كان بالحجرة إلى ركن من أركانها ، حصيره وغطاءه وصندوقه وإناءه ، وأخذ يحفر فى أرض الغرفة كأنه يحرثها ، فيقلب عاليها سافلها ، ليخفى كل ما على سطحها من سائل يحسبه دما ، حتى كلت سواعده ، بعد أن بدل

للحجرة أرضاً غير أرضها الأولى ، ولم ينس أن يخبىء اللحم فى انائه فى حفرة ردمها بالتراب ، ثم أعاد كل قطعة إلى مستقرها ، وجلس على حصيره ينتظر ما سيأتى به القضاء . !

وجاء الليل ثم ولى ، والشيخ لا يكاد النوم يستولى عليه حتى يهب مذعورا بعد أن يرى وجه زوجة أخيه وأولادها يبكون حسرة على حالهم .

ولما حل الصبيح أيقن أنه فى هذا اليوم لا بد مسوق بتهمة السرقة إلى مخالب القضاء ، وأدرك أن القدر لا يزال وراءه بعصا الانتقام !.

... وكان ما تكهن به عند حلول الضحى . فقد طرق الباب طارق ، فلم يجب بكلمة وجلا وجزعا ، ولكن الطارق صاح ينادى الشيخ ، ويهدد بكسر الباب إن هو لم يفتحه وتبين من صوته نبرات الوعيد والتهديد .

ولم يسع الشيخ أخيراً إلا أن يجيب :

— من بالباب ؟!

فعاد الصوت منذرا من جديد :

— افتح ياسارق الجدى !!

وهكذا وقع ماتوقعه ، وأشد منه وأنكى أن كان بالباب غير المنادى صبية يتهامسون ، وامرأة تسب وتتوعد!. وإذن فقد تطور الموقف إلى فضيحة كبرى ، تساوى كل مالاقاه من عذاب حتى الآن .

ولم يقو المسكين من فرط تأثره واضطرابه على الوقوف فسكت ، وأنصت فى استسلام الى صوت الضربات تتوالى على الباب الخشبى الذى ارتد على مصراعيه بعد لحظة .

ودهش القوم حين لم يروا بالغرفة دليلا على الجريمة ولكن جلد الحيوان الذى وجدوه ملقى خارج الباب ، لم يدع فى نفوسهم من ريب فى أن المجرم هو الشيخ ، وليس من أحد غيره .

وتقدم الشرطى الذى استنجدت به المرأة إلى الشيخ فنهره قائلا :

ـــ ماذا تقول فى هذه التهمة أيها الشيخ ؟

ولم يجب المتهم بكلمة بل ظل صامتا وكأن على رأسه الطير

ولكن المرأة صاحبة الجدى المفقود لم تصطبر لحظة بل انطلقت فى حرقة الغيظ تصيح :

ـــ هذا الكاهن اللئيم ! يضحك على ذقون الناس بالوعظ والارشاد . ثم يسرق جدي ويذبحه ، ويلقى بجلده إلى الشارع ! . إنه يستحق الشنق ! يستحق الجلد! إبحث ياسيدى الجاويش فى هذا الصندوق أو فى تراب ذلك الموقد ، أودعنى أنا أبحث أمامك !.. ألا ترى كيف أن الأرض منبوشة فى كل ناحية ؟ والتراب مقلوب فى كل بقعة ؟ ! ، والدماء .. هاهى الدماء يا جاويش مختلطة بالتراب ! . دماء جدي العزيز .. !

... جدي الذى كنت أربيه ، وأصرف عليه دم قلبى ، وأشترى له كل يوم بقرش برسيم ، والذى نذرته ذبيحة فى مولد السيد البدوى !.. إطمئن وأنت جاهى ، بحق السيد البدوى ، وكل الأولياء الصالحين ، أن تشوى هذا اللص فى نار جهنم ، كما كان يشوى لحم جدي ، وتسلخ جلده مثلما سلخ جلده ...

.. و .. آه ! .. ها هو الجدى يا سيدى الجاويش ، ها هو لحم جدي العزيز ، يخفيه المجرم فى بطن الأرض ! تحت التراب ! ! فيأكل كل يوم قطعة ـ بالسم ـ ثم يخبئه لليوم التالى ، حتى ينتهى . ولكنه لن يهنأ به أبداً . أبداً !!

بل سيهنأ بأسفلت السجن وعذابه . . هذا الشيخ العاهر !

وكان الجاويش وبضعة من الصبية يحيطون بالمرأة وهى تستنزل اللعنات على رأس الشيخ ، وكانوا جد مأخوذين بما تقوله وما تفعله من تنقيب فى أنحاء الحجرة ونبش فى الأرض ، حتى اذا عثرت على الاناء الذى يحتوى بداخله لحم الجدى المسلوق ، بلغ بهم العجب منتهاه ، ولم يسع أحد الأولاد إلا أن يصيح فى حماس وذهول :

— يا حرامى الجدى ! ! !

وعادت المرأة تندب حالها وتقول :

— قولوا لى يا ناس ! ما الذى سأناله أنا ثمناً لهذا الجدى وتعويضاً عنه ! ؟ وكل ماعندهذا المجرم لا يساوى ثلاثة ملليمات بما فى ذلك ذقنه ! ! من يعوضنى ثمن هذا الجدى الذى عرض علىّ فيه جنيه كامل فلم أقبل بيعه إلا بمائة وعشرين ، آه يامصيبتى ، آه يا خرابى . . يا دهوتى ! !

ولم يجد الشرطى بدأ من ايقاف المرأة عند حدها فصاح فى الشيخ :

— قم معى الى القسم ! . .

وكان الشيخ طول الوقت يضع أصابعه فى أذنيه ليتقى

تلك الألفاظ التى تقع فى فؤاده موقع الطعنات ، فلما ناداه الشرطى لم يسمع جيداً ما قيل ، فلم يتحرك من مكانه ، ولكنه شعر بعد هنيهة بيد قوية تجذبه الى الوقوف فوقف مرتجفاً ، والاضطراب آخذ منه كل مأخذ ، وأعاد عليه الشرطى القول :

— الى القسم يا مجرم !! .

وهكذا زف الشيخ سيف فى شوارع البلدة ووراءه الصبية يتجمعون ويتكاثرون فى كل خطوة ، وهم يصيحون ويهللون :

— يا حرامى الجدى ! . . . يا حرامى الجدى ! . . .

***

وقف الشيخ المسكين هادئاً غير مرتجف ولا مرتعد ينتظر التحقيق معه فى جريمة هو منها براء . . ولقد ازداد به اليأس والوجل فى بادىء الامر حتى انقلب الى عكسه فعاودته شجاعته النفسية ، واستسلم للقدر وما يأتى به بقلب من حديد ، ولكن ما كاد الضابط المحقق يتخذ مجلسه ، حتى اعتراه شعور الجزع بعد ما تليت عليه ظروف الحادث ودلائل ثبوته عليه . . .

وحين سأله الضابط فى سياق التحقيق :

ـــ وكيف تكون واعظاً أيها الشيخ ثم تفكر فى سرقة جدى ؟ !

أجابه الشيخ فى صوت متهدج يفيض بالأسى والحسرة

ـــ وهل تصدق يا حضرة الضابط أنى أفعل ذلك ؟ إنه حكم القدر أن أعذب ! ، وإلا فكيف يتيسر لى ، وأنا مريض قعيد على حصيرى فى حجرتي المغلقة ، أن أسرق جدياً ، ثم أذبحه ، وأسلخه ، وأوقد الموقد وأسلق لحمه ، ولست ذا بصر ، ولا عيون ؟

وعند ذلك بدت دلائل الحيرة على وجه الضابط المحقق ولاح له شىء من الحقيقة فى قول الرجل ، ولكنه شأن المحقق الحاذق راح يقول :

ـــ اسمع يا شيخ ! سأحكى أنا لك كل ما حدث ، وبعد ذلك يمكنك أن تبرهن على براءتك ! أنت حقاً كنت مريضاً وقعيداً فى حجرتك ، ولكن زائراً زارك فى العيد ، وكان من اللصوص ، فاتفقتما على سرقة الجدى والاشتراك فى لحمه ، على أن يخبأ عندك فيكون بعيداً عن الأعين ، ولكن فاتكما أن تخفيا معالم الجريمة جيداً فتركتما جلد الجدى بجانب الباب ! فما قولك فى ذلك ياشيخ !

وكان المتهم يزداد ذهوله شيئاً فشيئاً كلما ذكر الضابط جانباً من جوانب الواقعة ، حتى اذا سأله رأيه لم يسعه إلا أن يقول :

— إن ماتقوله ياسيدى قول شاهد عيان ، فقد زارنى حقاً رجل ، ولكنه ليس بلص ولا مجرم ، وأخبرنى أنه علم ما بى من جوع وضعف فجاءنى بجدى له ليهبه لى ، ولم يسعنى بعد إلحاحه إلا القبول ، وقد قام هذا الرجل بذبحه وسلخه وتجهيزه ، ثم تركه لى وذهب ، ثم كان من أمر ضبطه عندى ، ولم أكن أدرى مطلقاً أن الجدى لأحد من أهل البلدة غير الذى وهبه لى ، ولم يخطر ببالى أنه يريد الايقاع بى ، فافعلوا بى ما أنتم فاعلون ، والأمر لله ربى ، هو أعلم بما كان وبما يكون !

*

* *

وبعد أن قضى الشيخ المسكين فى السجن سبعة أيام عاد الى حجرته يجر ساقيه ، فبقى هنالك حتى الظلام ، ليتقى سخرية الناس ، ثم حمل حوائجه فى كيس فوق ظهره ، وخرج يضرب عصا الترحال الى بلد بعيد . . .

شرود العاطفة

عشق المرأة للمرأة عشق
أبتر ، مصيره إلى الفشل

يرى النازل فى إحدى ضواحى القاهرة ، سورا طويلا يضم بين جوانبه مساحة واسعة قد أحاطت بها أشجار الكافور الشامخة ، وقام فى وسطها بناء كبير . حوله حديقة منسقة مزدهرة ، والبقعة هادئة بعيدة عن ضوضاء المدينة ، ولا غرو فهى معهد علمى داخلى للبنات .

اصطفت الفتيات فى ساحة المدرسة ينشدن نشيد الصباح ، فى صوت واحد جميل يستقبلن به الأسبوع الدراسى ، بعد أن عدن من عند ذويهن ، حيث قضين عطلة الخميس والجمعة ، وقد بدت نضرة الشباب على وجوههن المشربة بالحمرة ، وشابهن أسراب الحمام الأبيض فى ثيابهن الناصعة الموحدة اللون والهيئة ، عندما أخذن يخطرن نحو حجر الدراسة فى صفوف متفرعة بشكل هندسى جميل .

وكانت تسير فى احدى الصفوف الداخلة الى الجناح

الأيمن من البناء. فتاة لم تتعد بعد السبعة عشر ربيعا، ذات جمال وبهاء، وقوام فاتن متناسق. قد تهدل شعرها الأسود على كتفيها فى ضفائر متعددة متجاورة كأعمدة من الأبنوس اللامع، وتوردت وجنتاها من فرط ما بها من الصحة والهناء، وفاح من حولها عبير الياسمين والبنفسج من باقة صغيرة قد اطلت من صدرها.

التفتت ناهد إلى جارتها فى الصف قائلة فى لهفة:

— متعرفيش ياسوسن أبلة فتحية جت ولا لأ؟

ولكن صديقتها غمرتها بنظرة ملؤها اللوم والعتاب. ثم قالت:

— إحم ياست ناهد!. أبلة فتحية مش جايه النهارده. الظابطة كانت بتقول إن عندها أجازة لغاية يوم الاثنين. إيه رأيك بقى؟!..

ولكن ناهد لم تجب بل امتقع وجهها قليلا — وتنهدت ثم واصلت السير فى سكون..

... واتخذت الفتاتان مقعديهما فى حجرة السنة الرابعة بالقسم الأدبى، وكان القلق يبدو على وجه ناهد بأجلى معانيه، ولكن سوسن التى تعرف سر هذا الاضطراب

ضحكت ضحكة قصيرة ، وربتت بيدها على كتف ناهد قائلة :

— إخص عليك يانونا — دانت يظهر داية خالص . بقى غياب أبلة فتحية يخليك حزينة ، وبوزك يصبح أمريكاني كده ؟! . دنت نونا صحيح ! . أبلتك فتحية أهى جت أهيه . اعدلى بوزك بأه !

دخلت الآنسة فتحية وصفى مدرسة التاريخ . فحيت الطالبات فى صوت أجش يميل إلى الاسترجال منه إلى صوت النساء ، ولم تزد تحيتها على كلمتين :

— صباح الخير !

وانطلقت الأصوات الناعمة تجيب فى نغمة واحدة :

— صباح النور يا أبلة !

وفى الواقع كانت الآنسة فتحية حائزة على الاحترام التام من طالبات المدرسة جميعا ، ومع أنها كانت تعاملهن بكل لطف وحنان ، وبغير كلفة ما ، إلا أن الجد كان يسود أعمالها ، فكن يقدرنها كثيراً ، ويحسبن لها حسابا .

بدأت تلقى درسا فى التاريخ عن الحملة الفرنسية على مصر ..

ثم خطر لها أن تلقى بضعة أسئلة على الطالبات قبيل انتهاء الوقت فقالت :

ـــ دلوقت ، مين تقدر تقول لى باختصار ماهى الدواعى التى دفعت نابليون إلى غزو مصر ؟

وعند ذلك ارتفعت الأصابع الرقيقة فى منافسة ظاهرة للاجابة على السؤال ، ولم تكد عينا ناهد تتقابل بنظر المدرسة حتى انتصبت واقفة دون أن تدعوها للاجابة !

ولم تجد المدرسة بدا من معالجة الموقف فقالت :

ـــ اشمعنى ياناهد انتى دايما مذاكره التاريخ كويس وتحبى تجاوبى كل سؤال ؟

ـــ أصل يا أبلة .. أصل انا يا أبله ..

وهنا فاضت عينا الفتاة بلهفة الحب والشوق وهى ترنو بعينيها نحو مدرستها . ثم استدركت حيرتها فواصلت قائلة :

ـــ يمكن تلخيص الدواعى التى دفعت نابليون إلى غزو مصر فيما يأتى :

أولا : تكوين مستعمرة فرنسية تعوض على فرنسا ما فقدته من أملاكها .

ثانيا : سد الطريق على انجلترا فى الشرق بينها وبين مستعمراتهم .

ثالثا : فتح أسواق جديدة للتجارة مع فرنسا .

رابعا: اكتشاف مصر من الوجهة العلمية ودراسة آثارها

ـــ جيد جداً ياناهد ! متشكرة .

ولم يكن من الميسور مواصلة الأسئلة إذ دق الناقوس مؤذنا بانتهاء الدرس الأول وخروج المدرسة من الغرفة

ولكن ناهد لم تدع الفرصة تفلت من بين يديها . بل تظاهرت بمغادرة الفصل لشأن خاص . فتعقبت المدرسة فى الممر الطويل المؤدى الى الدَّرَج . حتى إذا بلغتها كانت الدماء تكاد تنبثق من خدودها . ثم استخرجت من صدرها وردة حمراء اللون ، بديعة الهيئة ، ومدت بها يدها المرتجفة قائلة وهى تلهث :

ـــ تسمحى يا أبلة !

وتناولت الآنسة فتحية الوردة من ناهد ، فأدنتها من أنفها ثم قالت :

ـــ متشكرة جدا ياناهد !. لكن ليه تاعبه نفسك كده ياحبيبتى ؟!

وكان وقع الكلمة الأخيرة على ناهد عظيما . وودت لو سمعتها مرة أخرى فهمست مكررة فى ذهول « ياحبيبتى ! » ولكن مدرستها لم تسمعها إذ كانت قد بلغت منتصف الطريق إلى حجرة المدرسات .

***

تقع حجرة المذاكرة بالدور الأرضى من المدرسة وهى أشبه بمكتبة واسعة ، امتدت فى وسطها منضدة طويلة رصت بحذائها المقاعد من الجانبين ، وتدلت فوقها المصابيح الكهربائية على ابعاد قصيرة . ولم تكن الحجرة يومئذ مليئة بالمجتهدات النشيطات . فما زال الوقت بعد مبكرا ، ولما يمض من السنة الدراسية غير أربعة شهور .

وكان النظام يقضى أن لا تذاكر الفتيات فى غرف نومهن مطلقاً ، والويل ، وخصم نمر الأخلاق ، لمن كانت تضبط متلبسة بهذه الجريمة !

دخلت ناهد متأبطة كتاب التاريخ وبضع كراسات تتبعها سوسن وقد التف ذراعها حول خصر زميلتها تهانى ، وفى نهاية المنضدة جلس الثلاثة يلقين نظرة فاحصة على دروس اليوم ، ويستعدنها لتثبت فى ذهنهن ، وذلك

سيراً على الطريقة المثلى التى نصحهم بها أستاذ اللغة العربية .

ولم يمض على جلوسهن بضع دقائق حتى انطلق صوت سوسن فجأة :

— إف من المذاكرة يا خواتى ، دى حاجة تقلق ، مذاكرة مذاكرة مذاكرة !! متجوش نقفل الكتب ونتكلم شوية قبل ما يضرب جرس النوم ؟ !

ولكن ناهد لم يعجبها هذا الاقتراح فاعترضت قائلة

— لا يا سوسو — أنا لازم أعيد على درس التاريخ اللى أخذناه النهارده عشان ما انساهشى

وانتهزت تهانى هذه الفرصة فانبرت فى حدة « لتفش غلها » فى ناهد ، فقد كانت تكره مدرسة التاريخ منذ السنة الماضية ، بعد أن رسبت فى ذلك العلم وقضت طول مسامحة الصيف من مذاكرته ، ولم تتذوق لماء البحر ولا لهواء الاسكندرية طعما . .

— يا ختى انتى جايه المدرسة تتخصصى فى التاريخ ولا إيه ؟ ، دانت حقك السنة الجاية تعملى لك رسالة فى التاريخ وتقدمى فى الدكتوراه ! . .

فعاجلتها سوسن بقولها :

— اشمعنى ياست تهانى انت كمان ما بتذاكريش حاجة غير الفرنساوى ؟

— طب وماله ياست سوسن !! أظن حتقولى لى إنى بحب مدموازيل سوزان كمان ؟

وهنا ظهر الغضب على وجه ناهد بأجلى معانيه ، وفهمت «الفولة» التى تقصدها تهانى ، فصاحت على الفور:

— يعنى قصدك إيه يا تهانى ؟ ! انا بعددلوقت ما بقتش أذاكر معاك ولا أكلمك أبدا ، قومى ياسوسن نخرج نذاكر بره فى الحوش لوحدنا !

ولكن القلوب الفتية التى تنبض فى حنايا تلك الصدور الصغيرة لم تعرف بعد ماهو الحقد ، وماهو البغض ، بل تقدمت تهانى الى ناهد فربتت على كتفها فى حنان قائلة:

— انت زعلتى منى ياحبيبتى ؟ والنبى أنا ما اقصد حاجة وحشة أبدا ! ، انشاالله إن كنت اقصد حاجة بطالة أبقى أطفحها ! . .

وأردفت هذا الاعتذار بقبلة على رأس ناهد ، ثم قالت :

— اسمعى يا ناهد ! كل البنات عارفين انك بتحبى أبلة

فتحية ، لأنك عبيطة ، بتضطربى قدامها خالص ، ما بتقدريش تحكمى عواطفك أبدا !

ولكن ناهد لم تبال بشىء من هذا الحديث ، بل انطلقت فى سذاجة تقول :

ـــ يا خواتى أنا بحبها خالص ، خالص ! ، أنا مقدرش يفوت علىّ يوم واحد من غير ما أشوفها وأبص لها ، وتبص لى . . دنا كذبت على بابا امبارح وقلت له انهم طالبين منا فى المدرسة ثلاثين قرش عشان رحلة الفيوم ، مش خمستاشر زى ما طلبوا صحيح ، وحودت على محل فى شارع فؤاد الأول ونا جاية العصر ، واشتريت لها عقد حلو أوى ، ومش لاقيه أى فرصة عشان أديهو لها . . . بس يا رب تقبله ! ، دنا كل ما أكون لوحدى ، أروح طلعه وأبوسه ! ، تعرفى يا سوسن ؟ أنا . . .

وهنا قاطعتها سوسن إذ لم تستطع صبراً على هذا الحديث الممل ! . .

ـــ ناهد ! إيه الكلام الفارغ اللى عماله تقوليه ده ؟ بقى أنا اعقل فيك ، وانت تزدادى جنون أنا قلت لك ميت مرة إن حبك لأبله فتحية حيضرك ، مش حينفعك

وحيخلليك دايما فى عالم خيالى ، عالم بعيد عن المعقول ، لأنك عارفة كويس ان الغريزة اللى خلقها ربنا فى قلب البنت ما يشبعهاش الحب ده ! تقدرى تقولى لى انت بتذاكرى إيه كويس غير التاريخ ؟ ، وهل فى آخر السنة مش حيكون الامتحان الا فى التاريخ ؟ ، ياشيخه اعقلى بقى ، قبل ما توصل الحكاية لحضرة الناظرة ، فتفكر لك فى عقاب وحش زى وشها !

ولكن ناهد كانت كأنها تسمع حديثا فى «أبوزيد»

— يوه ياسوسن ! انتى بتكلمينى وعقلى مش معايا ، عقلى مع أبلة فتحية ، أنا بحبها أوى !

وضحكت ضحكة ساذجة بريئة تردد صداها فى أرجاء المكان .

وعند ذلك دقت الساعة ربعا قبل التاسعة فصاحت نهانى مقلدة ضابطة الألعاب فى دلال :

— قوموا يا بنات !! إلى العنبر جرى !! وفى السرير نوم !!!

وانطلقن يتسابقن على الدرج ثم فى الممر الطويل إلى قاعة النوم ، حيث رصت الأسرة متجاورة على

الجانبين ويتوسط القاعة ممشى ليفى طويل يصل بين طرفيها ، وقد وضع بين كل فراشين دولاب خشبى لحفظ الحوائج والملابس ، وكانت الأضواء الكهربائية الخافتة لاتزال تنعكس على الأسرة ، فكنت ترى أجساماً غضة هيفاء ، فى قمصان النوم البيضاء ، كأنها الملائكة قد هبطت إلى الأرض !

وبعد أن اتخذت ناهد وسوسن فراشيهما المتجاورين وذهبت تهانى إلى سريرها فى طرف القاعة ، دق ناقوس المدرسة مؤذناً باغماض الأهداب الجميلة ، على العيون الناعسة ، وهبط ملاك النوم بأجنحته الهادئة على تلك النفوس الوديعة الفاتنة

وما كاد صدى الرنين يتلاشى فى الهواء حتى دخلت القاعة سيدة عجوز قائلة فى صوت رفيع متكلف :

ـــ اتمسوا بالخير يا ستات

ولم تنتظر على ذلك رداً لتطفىء المصابيح الأربعة التى كانت تضىء القاعة ، وساد الظلام والسكون ، وبدأت كل فتاة تستعد لاحتضان النوم الهانىء ، وما يتخلله من أحلام الشباب المعسولة

إلا ناهد ! فلم تغمض أجفانها بعد ، ولو أن الأمرين ، إغماض أو غيره ، كانا سواء فى هذه الظلمة الحالكة ، بل ظلت تفكر فيما هى مقدمة عليه ، وكانت أطرافها ترتجف ، وقلبها ينبض سريعاً ، يكاد يفضحها من ارتفاع صوته ، ولم تكن لتعلم كم من الوقت قد مضى وهى تفكر ، نصف ساعة ، ساعة ، ساعتان ولكنها فى حركة فجائية ، مملوءة بالحيطة والحذر ، تحركت من فراشها واقفة بكل احتراس خشية إحداث أى صوت ، وبعد أن انصتت برهة لتطمئن على شمول السكون والهدوء ، واستغراق الكل فى النوم العميق ، بدأت تخطو على الممشى الليفى ، حتى خرجت من القاعة إلى الممر حيث كان الضوء خافتاً والهدوء شاملا

أخذت تتسلل فى حذر زائد حتى بلغت غرف المدرسات ، وهناك وقفت أمام أولى الغرف ، غرفة مدرسة التاريخ ، وكانت لم تزل مضاءة بنور ضئيل ينبعث من أحد أركانها ، كأنه مصباح مكتب أو ما أشبه ، وإذا بيدها تمتد مرتعشة إلى الباب فتنقر مرة ، فمرتين ، وهى تحس فى قرارة نفسها أنها إنما تقترف جريمة شنعاء

وطرق سمعها فجأة صوت مدرستها يجيب فى دهشة من الداخل :

ـــ مين !!

وأجابت ناهد فى لهجة أشبه بالتوسل والرجاء فى صوت واهن مرتعد النبرات :

ـــ أنا . . ناهد !

وفتح الباب وأطلت المدرسة مذهولة وهى بثياب النوم

ـــ مالك يا ناهد ؟ ! جرى إيه ! ؟

ـــ ما فيش حاجة يا أبلة . . أنا . . .

ـــ طيب ادخلى ، وكملى كلامك . .

وفى داخل الحجرة أضاءت المدرسة المصباح الكبير وألقت على ناهد نظرة قاسية ! ثم قالت ولم يغادرها بعد الذهول من هذه المفاجأة الغريبة :

ـــ إيه ؟ ! ، جرى إيه يا ناهد ؟ ؟ . .

ـــ أصل يا أبلة . . أنا شفت . . أصل أنا يا أبلة . .

وانفجرت تبكى فى تأثر عميق مرتمية بين يدى المدرسة تشهق وتقبل حيثما وقعت شفتاها . . وظلت كالطفلة الباكية على صدر أمها الى أن أدرك الحنان قلب المدرسة

فأخذت تمسح بشعر رأسها تهدىء خاطرها ، وتربت على كتفها بيدها ، حتى زالت الثورة النفسية الحادة التى قامت فى نفس الفتاة . وأخيراً خاطبتها فى نغمة هادئة :

ـــ مالك يا حبيبتى ؟ مش تكونى شجاعة شوية ؟ إيه حصل قولى لى ، اقعدى جنبى هنا وقولى لى على كل حاجة.

ـــ مفيش حاجة يا أبلة ! . . أنا بحبك !! . .

ولكن غصة البكاء فى حلقها ودموع الشجون فى عينيها لم يجعلا لديها قدرة على مواصلة النطق ، وكان على المدرسة أن تكيف الموقف بسياسة وحذق فأجابت :

ـــ طيب وماله يا ناهد ! . أنا كمان عارفه كده !!

وعند ذلك مدت ناهد يدها الى صدرها فأخرجت من بين نهديها عقداً جميلا شفاف الحبات فى زرقة السماء ينسكب الضوء خلاله ثم ينعكس فيبدو فتاناً كالماس . . .

ـــ أنا جبت لحضرتك العقد ده هدية ! . .

ـــ أشكرك خالص يا ناهد ! . ياه !! دا عقد جميل خالص ، الله ! ورينى كده ! . .

ولم تناولها ناهد إياه إلا بعد أن طبعت عليه قبلة طويلة أودعتها كل ما تشتهى من عاطفة ، وتلقته المدرسة

فى كفها فقلبته برهة فى اعجاب ، ثم ألقت بيدها الأخرى على كتف ناهد قائلة :

ـــ ناهد ! ، اسمعى ياحبيبتى ! بقى أنا عاوزه أقول لك حكاية صغيرة ، وعاوزاك تاخدى بالك أوى من كلامى ، أحسن دى حكاية مهمة خالص ! ، بقى ياستى ، أحب انك تعرفى ان بعض البنات عندهم استعداد قوى للحب والحنان والعطف ، وكل العواطف دى ! ، ولما كان الوسط المدرسى اللى عايشين فيه أكتر وقتهم ، لا يعطى لهم فرصة لاظهار العواطف دى ، فتجديهم يفرغوا كل مشاعرهم فى حب زميلاتهم أو مدرساتهم ، وده طيش كبير ، وخطأ أخلاقى فظيع ، نتيجته سيئة جداً ، وما أحبش أشوفك متصفة بمثل هذا الطيش ، بل كل ما أحبه هو أن تلتفتى لدروسك كويس ، وتطردى من رأسك كل هذه الأوهام السخيفة لأنك بنت نبيهة وأخلاقك كويسة ، وما أحبش حد يقول عليك حاجة وحشة أبداً فى يوم من الأيام ، أما العقد ده ، فأنا أشكرك عليه خالص ، لكن بدى انك تلبسيه انت باستمرار ، علشان تتذكرى نصيحتى دى ، وتعملى بيها . . .

وسكتت المدرسة لترى مدى تأثير حديثها على ناهد ولكن هذه أجابت وكأنها لم تكن تسمع شيئاً :

ـــ لكن أنا بحبك يا أبلة !

وتجاهلت مدرستها هذه العبارة ، فاقتربت منها وألبستها العقد قائلة :

ـــ تعرفى ياناهد ، أد إيه أنا زعلانه منك لأنك سبتى سريرك بعد المواعيد ، وجيتى بالشكل ده ! ، يمكن حد شافك فى الممر ، أو يمكن الضابطة تروح تفتش على العنبر دلوقت ، تبقى تقولى لها إيه ؟ ! .

وعند ذلك حدث ما لم يكن فى الحسبان ، بل حدث ما فرضته المدرسة فرضاً ، فقد انطلق من خارج الباب صوت الضابطة نفسها ترد على استفهام المدرسة قائلة :

ـــ متقولهاش حاجه ! ! تبقى تقول لحضرة الناظرة كل اللى تقدر تقوله بكره الصبح ! ! .

وهكذا وقع المحظور ، وعلمت الضابطة بترك ناهد لفراشها حين ذهبت لتفتش على قاعة النوم ، فحسبتها فى دورة المياه ، ولكنها عند مرورها بحجرة المدرسة ولاحظت بقاءها مضاءة ، أنصتت عند الباب فطرقت

سمعها أصوات من الداخل ، تبينت منها نهاية الحديث وقالت ما قالت ، ثم عادت مسرعة الى مكتبها فقيدت ما علمته فى ملف خاص ، ورجعت الى قاعة النوم مرة أخرى ، فرأت ناهد ترقد فى فراشها باكية حزينة ، تتمنى أن لا تطلع شمس الغد !

ولكن الغد جاء ، وأسرعت الضابطة الى مكتب الناظرة بعد ابتداء الدروس وانصراف الفتيات الى فرقهن

وكانت رئيسة المدرسة سيدة تطرق باب الشيخوخة قد لاحت فى رأسها الشعرات البيض ، فزادتها وقاراً ، وكانت تضع فوق عينيها منظاراً ذهبياً ذا لون أزرق ، وفى تقاطيع وجهها تبدو علائم الجد والقسوة .

وابتدرت الضابطة بقولها :

ـــ عندك إيه فى بلاغ الأسبوع يا رشيدة ؟

ـــ حاجات غريبة ياحضرة الناظرة ! ما كنتش أظن أن البنات تصل بهم الجرأة إلى هذا الحد !!

ـــ ليه جرى إيه ؟

وسحبت الضابطة من تحت إبطها ملفاً ففتحته وأخذت تقرأ منه فى لهجة حادة عنيفة :

أولا : عيشة ربيع بالسنة الثالثة فصل ثان ، رأيتها تركع بجانب سرير زينات الكفراوى بعنبر نوم السنة الخامسة ، وتقول لها « أنا باعبدك يا زينات من كل قلبى ! شوفى البلوفر الجميل ده اللى عملتهولك . والنبى أنا تعبت فيه خالص . بقى لى شهرين ! لكن طلع حلو أوى ! » وعند ما لمحتنى غيرت لهجتها وجعلت تسألها « لكن إيه السبب يا زينات فى أن الرياح الموسمية التى تهب على الهند من الشمال لاتحمل أمطاراً ؟ ! »

ثانياً : فريدة حسين خالفت قوانين المدرسة ، ودخلت الحمام فى غير اليوم المقرر لها ، وأحدثت أصواتاً مزعجة جداً عند عودتها فى الممر الذى يوصل إلى غرفتها !

ثالثاً : فى حصة الطبيعة بالسنة الرابعة علمى تبجحت إحسان الغرباوى على المدرس فسألته سؤالا محرجاً : « ليه يا فندى فيه مغناطيسية بين أفراد الجنسين من بنى آدم ، ومافيش بين أفراد الجنس الواحد ؟ » فأخرجها من الحصة وقدم فيها هذا البلاغ

رابعاً : فى عنبر رقم ٤ كانت بديعة اسماعيل تخرج أصواتاً مزعجة بعد إطفاء الأنوار !!

خامساً : والآن يا حضرة الناظرة أرجو حضرتك الانتباه قليلا إلى هذا البلاغ ، فهو الأول من نوعه فى المدرسة منذ استلامى العمل فيها ، وأرجو أن تتخذى حضرتك كل الاجزاءات اللازمة لمكافحة هذا الداء الوبيل المعدى ، الذى يفسد أخلاق البنات ويوجهها توجيهاً غير طبيعى بالمرة ، وهو حب البنات للمدرسات ، أو حبهم لبعض ، فقد كنت أفتش أمس فى عنبر ٣ بعد أن دق جرس النوم بنصف ساعة ، فأضأت النور ، فلاحظت أن أحد الأسرة فارغاً ، فلما اقتربت منه وجدته مرتباً ، كأن صاحبته — ناهد طلعت — لم تلمسه فسألت عليها جارتها سوسن التى كانت مستيقظة ، فأجابت أنها ربما ذهبت إلى دورة المياه

وكانت مضطربة فى إجابتها ، فلم أقتنع ، وداخلنى الشك ، وبعد أن مررت على بقية العنابر عدت لأرى إن كانت رجعت أم لا ، وبينما أنا سائرة فى الممر لاحظت أن حجرة الست فتحية مضاءة بالنور القوى ، وسمعت فيها صوت حديث ، فاقتربت من الباب فسمعت صوت بنت تقول فى لهجة مؤثرة : « لكن أنا بحبك يا أبلة ! » وبعد

سكون دام لحظة سمعت ست فتحية تجيبها « تعرفى ياناهد أد إيه أنا زعلانه منك لأنك سبتى سريرك بعد المواعيد وجيتى بالشكل ده ، يمكن حد شافك فى الممر ، أو يمكن الضابطة تروح تفتش العنبر دلوقت ، تبقى تقولى لها إيه ؟ !» واضطررت أنا الى التدخل فى هذه المسألة الخطيرة فقلت من خارج الباب : « متقولهاش حاجة ! تبقى تقول لحضرة الناظرة كل اللى تقدر تقوله بكره الصبح ! »

وسكتت الضابطة فجأة وكان الانفعال قد بدا على وجهها منذ البدء فى تلاوة البلاغ وزاد الى حد كبير عندما انتهت من قراءته

وكان للبلاغ نفسه أثره القوى على مشاعر الناظرة ، التى كان وجهها يتجهم كلما استمرت الضابطة فى الحديث حتى إذا انتهى قالت فى انفعال شديد :

ـــ بقى لحد هذه الدرجة أسمع إن فيه بنات فى المدرسة بهذا الشكل ؟ ! ! ، اخرجى حالا اندهى لى كل البنات اللى ذكرتى أسماءهم ، وما تنسيش البنت المنحطة المجرمة دى ! ! ..

وخرجت الضابطة يملؤها شعور الفخر باكتشاف

هذا السر الخطير ، وذهبت تجمع المتهمات الخمس ، حتى إذا اكتمل عددهن ، ساقتهن الى غرفة التحقيق .

وضغطت الناظرة على زر كهربائى أمامها ، فدخلت المتهمة الأولى عيشة ربيع ، ولم تترك لها الناظرة فرصة التحية بل فاجأتها بقولها :

ـــ انت عندك استعداد للانتحار فى سبيل زينات الكفراوى والا لأ ؟ البلوفر اللى عملتيهولها حيرجع بينك تانى ! وجنابك مرفوته أسبوع تقدرى تناجى فيه طيف محبوبتك يا منحطة وتكملى لها البلوفر عشان يبقى فستان ، وغير كده مكتوب لك انذار بالفصل ، اتفضلى بره ! لا !. مش عاوزة اسمع حاجة ، امشى اطلعى بره !! ..

وخرجت عيشة ربيع تتعثر فى مشيتها تكاد تتفجر من فرط الغيظ والكمد ، ورن الجرس الثانى ودخلت فريدة حسن ..

ـــ حضرتك مش مبسوطة من القوانين اللى أنا واضعاها علشان نظام المدرسة ، والا إيه ؟ ! ـــ

ـــ لا والنبى يا حضرة الناظرة ، أصل أنا عندى

روماتزم ، وخايفة ألبس الشبشب ، لأنه موصل جيد للرطوبة ، أما القبقاب فمصنوع من الخشب !

ـــ كل ده كلام فارغ ! عاوزة تضحكى على يا بنت ؟ ! وبتستحمى فى غير اليوم المقرر لفرقتك ليه ؟ !

ـــ أصل ياحضرة الناظرة ما كنتش اقدر انتظر لحد اليوم المقرر !

ـــ بنت جريئة متبجحة ! ! ـــ متقدريش تنتظرى اليوم المقرر ، اللى هو بعده مباشرة ، مش كده ؟ ـ نمرتين أخلاص خصم ، ومفيش مرواح الجمعة دى للبيت ، تقعدى هنا حضرتك عشان تذاكرى قوانين المدرسة كويس ! !.

ودق الجرس الثالث مؤذنا بانصراف المتهمة الثانية ودخول المتهمة الثالثة ، احسان الغرباوى

ـــ إيه ياستى الأسئلة دى اللى تدل على ذكاء نادر ؟

وابتسمت احسان وظنت أن الناظرة تتلطف معها فقالت :

ـــ العفو ياحضرة الناظرة ، أنا بس . . .

ولكن الصوت الأجش الذى قفز من حنجرة الناظرة جعل المسكينة تبتلع بقية عبارتها . .

ـــ اخرسى يا متبجحة ! ـ اخرسى !! .. انتم فاكرين نفسكم فى إيه ؟ ـ فى شارع ولا فى غرزة ؟ ـ إيه الأفكار المنحطة اللى تخلى الواحدة تنطق بمثل هذه الأسئلة السافلة ! انتم ؛ اللى لا يجب مطلقا انكم تفتحوا عيونكم أو عقولكم على هذه المواضيع الفاسدة ، انت جرثومة خطيرة لا أستحسن وجودها بين فتيات بريئات ، عشان تحولى مجرى أفكارهم لهذا التبذل الوقح ، أنا لازم اكتب لولى أمرك عشان ياخدك يربيك شوية ، وأحرمك من حضور الدروس أسبوع !!

ولكن احسان تبكى وتتوسل قائلة :

ـــ والنبى معلهش يا حضرة الناظرة ، اعملى معروف أحسن بابا شديد على خالص ، أنا أحلف لحضرتك بالله العظيم إنى ما بقيت أسأل أسئلة تانى أبدا !

ـــ الكلام ده تقوليه للبابا بتاعك ، يللا اتفضلى بره ! أنا معنديش وقت ، واللى قلته هو اللى حيمشى ، يللا !! . .

وهكذا تنصرف إحسان دون أن تنبس ببنت شفة .

وفى هذا الوقت تدخل الضابطة وبيدها أحد الملفات

فتضعه امام الناظرة ثم تعود شطر الباب فتستوقفها الناظرة بقولها .

— ابعتى لى يارشيدة . بديعة اسماعيل وناهد طلعت مع بعض .

أما ناهد فقد كانت طول وقت التحقيق تقف مستندة إلى الجدار خشية السقوط . فقد امتقع وجهها وشحب ، واعتراها الذهول ، ولاعجب فقد قضت طول ليلها مضطربة وجلة تتعثر فى رأسها مئات الأفكار والمخاوف ، عما سيأتى به الغد ، وكانت كلما اقترب ميعاد دخولها عند الناظرة ، شعرت بانحطاط فى قواها واختلاج فى ساقيها ، واضطراب فى ضربات قلبها .

ولما أخبرتها الضابطة بوجوب دخولها مع بديعة ، استندت إلى زميلتها ، ودخلت الاثنتان مضطربتين وشتان بين اضطراب واضطراب .

وتجاهلت الناظرة وجود ناهد بالمرة ، ونظرت إلى بديعة شزرا ، فأسرعت هذه إلى الكلام دون استئذان :

— والنبى ماعملتش حاجة ياحضرة الناظرة . أصل الظابطة متغاظة منى وعاوزانى أتعاقب من غير سبب !

ـــ اخرسى ياقليلة الأدب ! البلاغ بيقول انك كنت بتخرجى أصوات مزعجة بعد انطفاء الأنوار ، ودق ناقوس النوم ، عاوزه اكتر من كده سبب عشان يتحذف لك نمرتين أخلاق ، ومتخرجيش فى أجازة الاسبوع ؟!

ـــ وإيه هى الأصوات اللى كنت بخرجها يا حضرة الناظرة ؟

ـــ الأصوات ؟ طبعا كانت أصوات قبيحة ، جديرة بالشكوى !

واستغربت الناظرة من نفسها الاجابة على سؤاله الفتاة فصاحت بها :

ـــ بتسألينى يامتبجحة عن ماهية هذه الأصوات ؟!

ـــ لا والنبى ياحضرة الناظرة ، ده كان صوت واحد بس ! صوتى أنا لوحدى بس ! كنت بغنى شوية صغيرة ، يعنى بشويش ، ولما دخلت الظابطة رحت ساكته

ـــ كمان بتقولى انك بتغنى ياوقحة ! حضرتك حتطلعى مغنية ؟ أمال كنت جايه المدرسة ليه ؟! العقاب اللى قلت عليه هو اللى ينفذ ! يللا اخرجى يامتبجحة ! يا .. يامتبجحة !

وتخرج بديعة اسماعيل ممتلئة بالحقد والكراهية نحو

الناظرة والظابطة معاً ، وما نبلغ الباب حتى تتمتم « والنبي لأوريك يا ظابطة القرد يا وحشه ! »

وسمعت الناظرة تمتمة الفتاة فصاحت بها :

ـــ بتقولى إيه يا بنت ! ؟

ـــ بقول ، الله يخليك يا حضرة الناظرة !

وأسرعت الى الخارج ! . .

وجاء دور ناهد المسكينة ، وكانت لا تزال تقف مستندة بيدها الى رأس أحد المقاعد ، وجهها شاحب ، وعقلها تائه ، وعيناها مستقرتان على لا شيء ، تفكر فى أمر واحد ، فى العقاب الذى ستوقعه عليها الناظرة ، تتنبأ بقسوته وفظاعته ، ومقياس ذلك عندها هو بعدها عن « أبلة فتحية » معبودتها .

وفجأة تدوى صيحة قاسية تنطلق من فم الناظرة فى وجه الفتاة ، كأنها توقظها من سباتها المعنوى بوحشية :

ـــ ناهد ! !

وتنتفض المسكينة ولا تجيب

ويهبط صوت الناظرة الى سلم السخرية وتقول :

ـــ جنابك بتحبى فى المدرسة !! وبتحبى مين ؟ احدى

المدرسات ! ويمكن كمان أحد المدرسين ، وتتجرئي على انتهاك حرمة المدرسة ، وشرف المدرسة ، وقدسية المدرسة بهذا الشكل الوقح الدنيء ! ! !

وكان الصـــوت يعلو ويعلو كلما اقتربت الى نهاية العبارة حتى بلغ درجة الصياح ، ولكن ناهد المسكينة لم تجد صوتها لترد

ـــ مالك واقفه كده زى الصنم ! طبعاً عقلك يدرك فظاعة العمل اللى اقترفتيه ، ردى على ! ! عندك إيه تقوليه ؟ بكل تأكيد بتعترفى بكل جراءة بهذه الفعلة الشنيعة ، إذن أنت مفصولة من المدرسة من اليوم ! ! من دلوقت حالا ، مش عايزه أشوف وشك هنا تانى ! يا فاسدة يا مجرمة ! ! والمدرسة بريئة منك ومن أمثالك وأفعالك ! !

وعند ذلك انفجرت الفتاة باكية فى حرقة شديدة بعد أن جردها الذهول من كل عاطفة ، وتصل الضابطة فى الوقت المناسب ، فتتلقى تعليمات الناظرة بشأن الفتاة :

ـــ اسمعى يارشيدة ! أنا قررت فصل ناهد طلعت من المدرسة نهائياً ابتداء من اليوم ، وحكتب للوزارة بذلك ، وعندك وقت لغاية الظهر ، تطلعى فيه أوراقها ، وتبعتى

عم أحمد يوصلها لغاية البيت ، وقبل مايمشى خليه يفوت على ياخد جواب منى لأبوها ، وطبعا ما يتنقلش من عندهم إلا بالايصال اللازم باستلام الجواب والأوراق ، وبوصول البنت .

وهكذا صدر الحكم القاسى على ناهد الجميلة بأن تغادر المدرسة وتنأى عمن تحب ، ولم يكن ذلك عندها بأقل فظاعة من الحكم بالنفى أو التشريد .

***

حضرة المحترم طلعت افندى محمود

بعد التحية ، يؤسف إدارة المدرسة أن تضطر لابلاغكم بأنها ترى من مصلحة ابنتكم ناهد أن تنقطع عن المدرسة من الآن ، بعد أن بدر منها ما يوجب هذا التصرف تأديبا لها ولأمثالها ، والمدرسة تؤكد لكم أنها قد أدركت الخطر قبل أن يستفحل ، وانها لذلك تسرع بفصل التلميذة المذكورة خشية وقوعها فيما لاتحمد عقباه ...

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

ناظرة مدرسة ... الثانوية للبنات

الامضاء

ذهل طلعت افندى عند قراءة هذا الخطاب ، وأول ماخطر له أن أمراً يتنافى مع الشرف أو الفضيلة قد بدر من ابنته ، وكاد يصيح فى الفتاة التى وقفت بجانب خادم المدرسة شاحبة الوجه غائرة العينين ، ولكن عطف الرجل على ابنته وثقته بأخلاقها وسيرتها بددت من رأسه ذلك الضباب الحالك قبل أن يتكاثف ، وغلب عليه حبه لها فآثر السكوت وقتئذ ، مكتفيا بالانصراف إلى غرفة مكتبه بعد أن وقع على الايصال وناوله للخادم ، وبقيت ناهد واقفة فى شرفة البيت التى تطل على مدخله ، حتى لمحتها أختها الصغيرة سعاد فجاءت تجرى اليها فرحة بمقدمها

كان طلعت افندى من كبار تجار الجملة ، قد أخلص فى عمله ، ففتح الله عليه ، ورزقه سعة من العيش ، فكان يسكن فى بقعة هادئة ، فى ضاحية جميلة من ضواحى القاهرة ، هى حدائق القبة ، بيتاً أنيقاً مستقلا أحاطت به حديقة واسعة لها سياج قد اكتسى بأزهار الياسمين .

ولقد ألجمت الصدمة لسانه فانصرف إلى مكتبه وجلس معتمدا رأسه بين يديه ، يقلب صفحات فكره عما

يكون هذا الأمر الخطير الذى بدر من ابنته . وكان من أثره المباشر فصلها النهائى من المدرسة .

إن حبه لابنته ناهد لأعظم من أن يوصف ، فقد تولت شريكة حياته منذ سبع سنين ، وتركت بين يديه ناهد وأختها سعاد ، التى لم تك بعد أكملت سنتها الأولى ، ولم يفكر يوماً فى الزواج ، لشدة حزنه على زوجته ، إذ كان يحبها الحب كله ، حباً عميقاً متأصلا فى أنحاء فؤاده وعقله ، ويحب بنتيه ويضنّ بهما على أن تتولى رعايتهما امرأة أخرى ، قد لا تحنو عليهما حنو أمهما . أما شغفه بناهد فقد زاد كثيراً حينما بلغت أشُدّها ، واكتملت أعضاؤها ، فأصبحت لها هيئة أمها وأوصافها ، وجهها وشعرها ، وعيناها وقوامها ، كل ما بها كان يشعره دائماً بأنه يرى أمها حية ناطقة ، ولذلك اعتاد أن يطيل معها فى الحديث ، فيعجب بذكائها وصفاء تفكيرها وصواب رأيها ، ويجد فى ذلك راحة كبرى لنفسه الحزينة .

ولذا فلم تكد أفكاره تنطلق به فى كهوف الشكوك المظلمة حتى جذب عنانها وحولها إلى ناحية أخرى حيث ألقت ثقته فى أخلاق ابنته وطهارة نفسها على الموقف

ضوءاً تبددت أمامه ظلمات الظن السيء ، وتحول جزعه إلى مجرد القلق ، وهدأت أمواج أفكاره بعد ثورة عنيفة .

وأخيراً ترك غرفته متأبطاً بعض الأوراق وخرج دون أن يفاتح ابنته فى أمر ، بل دون أن يشعر أحداً بخروجه .

***

ولقد اعتكفت ناهد فى غرفتها اعتكافا تاماً منذ اللحظة التى عادت فيها إلى البيت ، فلم تتناول غذاء ولا عشاء مع أختها سعاد رغم إلحاح الخادمة مبروكة

وعند ما أصبح الغد كانت عيناها لم تجفا من الدموع ، ولم تدع فراشها بل ظلت تتقلب عليه فى ثورة نفسية شديدة ، لم يكن يدرى أحد من البيت بدواعثها وأسبابها .

وقد حاول طلعت افندى يومئذ الدخول اليها قبل ذهابه إلى عمله ، للتحدث معها ولو فى شئون أخرى ، فأشارت عليه مبروكة الخادمة بالتريث قليلا حتى تذهب عن ابنته آلام الصدمة ، لأن فصلها من المدرسة قد أثر عليها كثيراً ، وكان فى رأى مبروكة نتيجة لأسباب تافهة أو ربما لجدال بينها وبين أحد المدرسين .

ولما جاء العصر دخلت سعاد الصغيرة تجرى وبيدها دب كبير أبيض حتى بلغت فراش أختها فألفتها جاثمة على الوسادة تبكى بكاء خافتاً ، ولم تكن الصغيرة بالتى تفهم لهذا معنى ، بل صاحت مبتهجة :

ـــ شوفى يا أبلة اللعبة اللى جابها لى أبيه الدكتور !

ولكن ناهد لم ترُدّ ، فجذبت أختها كرسياً وصعدت عليه إلى السرير ثم هزت كتف أختها مُعيدةً ما قالت ، ولكن هيهات أن ينحسر الظلام الذى انتشر فى فؤاد الفتاة عن فرجة من نور البهجة أو السرور ، ولذا فلم تجد الصغيرة بداً من تركها فى شئونها مسرعة إلى غرفة الاستقبال .

جلس طلعت افندى يستمع إلى محدثه الدكتور مراد، ابن المرحوم أخيه ، جاء لزيارته بعد طول غياب ، وقد كان هذا الشاب رزيناً وديعاً ، تعلو محياه الرقة ولا يسع من يراه إلا أن يشعر نحوه باعجاب مقرون بالاحترام .

جاء الدكتور مراد مسلِّماً على عمه مستفسراً عن صحته وصحة بنتيه ، بعد أن عاد من مأموريته بالفيوم ، ولم يكن بطبيعة الحال يتوقع وجود ناهد بالبيت ، ولذا

فلم يذكر عنها شيئاً فى حديثه ، حتى حضرت سعاد فخاطبها مداعياً :

ـــ خلى بالك يا سوسو من الدبة كويس ، أحسن بعدين تاكل مبروكة !

فأجابت الصغيرة بظرفها المعهود :

ـــ ما تخافشى يا أبيه ، مبروكة لحمها اسود وِحش !..

ثم التفتت إلى أبيها هامسة :

ـــ بابا ! أبلة كل ما أكلمها مش عاوزه ترد علىّ ! .

وهنا انتبه مراد الى أن ناهد بالبيت فنظر الى عمه متسائلا لأن اليوم لم يكن يوم عطلة ، فأدرك طلعت افندى مايرمى إليه ، وقبل أن يجيب بشىء ، التفت الى سعاد قائلا :

ـــ روحى يا سوسو افتحى الراديو واسمعى حكايات بابا صادق .

ثم سكت برهة ، وعاد يقول :

ـــ والله يا ابنى أنا فضلت أخيراً إنى أحجز ناهد من المدرسة ، تقعد فى البيت تتعلم لها كام حاجة فى المطبخ ، وتقوم بتدبير البيت ، عشان تكمّل تعليمها المدرسى .

ونظر الدكتور إلى عمه نظرة طويلة ثم قال :

ـــ تسمح لى ياعمى أتكلم فى موضوع .. ربما.. يعنى يكون جرىء شوية ؟ .

ـــ أستغفر الله يا بنى ، اتفضل اتكلم فى أى موضوع من غير استسماح !

ـــ لا يا عمى ، الموضوع اللى عاوز أتكلم فيه عاوز إذن .. بقى حضرتك تعرف أخلاقى كويس ، وتعرف إنى والحمد لله عندى موارد رزق لا بأس بها

ـــ العفو يا بنى ليه جرى إيه لا سمح الله ، ربنا يفتح عليك كمان وكمان .

ـــ الله يحفظك يا عمى ، أنا بس كان بدى أسأل إذا كانت ناهد حد خطبها وعشان كده قعدت فى البيت .

ـــ لا يا بنى أبداً ، أنا قلت لك على كل ما فى الأمر ، مفيش حاجه أبداً من اللى بتقوله .

ـــ طيب أقدر أحوز الشرف ده يا عمى ؟

وهنا تفتحت أسارير الرجل وشملته نشوة خفيفة من الفرح وقال مبتسما .

ـــ بقى يا مراد عمّال تحيرني وتدورنى عشان تسألنى السؤال ده ! يا بنى دنا عمك ، وانت غالى عندى

زى بنتى تمام ، واحنا طبعاً أهل ، وأنا يهمنى جداً انى أسعدك وأسعد بنتى ، وما عنديش أى مانع ما دام انت عاوز كده .

ـــ صحيح يا عمى ؟ ! أنا أشكرك جداً وأعدك أنى سأبذل كل ما فى وسعى لاسعاد ناهد دائماً أبداً ، بس أرجو ان ما يكونش فى الجو غيم لأنى شايف حضرتك قلقان شوية !

ـــ مفيش حاجه يابنى ، بس أنا مش عارف ليه ناهد من ساعة ما جت من المدرسة ، وهى مزاجها متعكر أوى وزعلانة خالص !.

ـــ غريبة يا عمى ، يمكن زعلانة علشان حجزتها من المدرسة ، وربما كانت تحب مواصلة تعليمها ، أو شىء من هذا القبيل . . . لكن ليه حضرتك ما أخدتش رأيها فى المسألة دى ؟

ـــ والله يا مراد أنا خايف على البنت تكون عيانه لأنها بقالها يومين ما داقتش حاجة أبدا .

وبدا الاضطراب على وجه الشاب فقال :

ـــ تسمح لى أشوفها ياعمى ؟

ـــ اتفضل يا ابنى .

* * *

ارتعبت ناهد حين رفعت عينيها التى قرحهما البكاء فرأت أباها واقفاً بجانب الفراش يبادرها بقوله :

ـــ مالك ياحبيبتى؟ أنا خايف تكونى عيانه ولا حاجة، والدكتور ابن عمك جه دلوقت وعاوز يسلم عليك فقومى ياحبيبتى اغسلى وشك وغيّرى فستانك .

ولكنها أجابته بقولها :

ـــ أنا تعبانة أوى دلوقت يا بابا !

ـــ لكن يا بنتى دا عاوز يسلم عليك !

ـــ معلهش يا بابا خليه يتفضل هنا لأنى مش قادرة أقوم أبدا ، تعبانه أوى !!

وبعد لحظة كانت ناهد خلالها قد جففت دموعها ورتبت من هيئتها المشعثة الحزينة ، ودخل مراد وتقابلت نظراته بها ، فأزعجته هيأتها الذابلة وطلعتها الشاحبة .

ـــ سعيدة يا ناهد ! انت وحشتينى أوى ! . إزيك مالك كده ؟ تعبانه ؟!...عندك إيه ؟ ؟ .

ـــ مافيش حاجة يا مراد . أشكرك !

وتكلم الأب فقال :

ـــ مراد بدّه يشوفك ياناهد، يجس نبضك، ويقيس درجة حرارتك ، يمكن يا بنتى يقدر يوصف لك حاجة تروّق مزاجك وتفرفشك شوية ! . . .

ولم تجب ناهد بل مدت يدها إلى الدكتور فتناولها وضغط على النبض بابهامه فألفاه مضطرباً سريعاً ؛ ثم أخرج من جيبه مقياس الحرارة فناولها إياه لتضعه تحت لسانها برهه . . .

ـــ إنت ياختى معندكيش حاجة من الوجهة الجسمية بس يظهر أن عندك أرق شديد ، وما بتاكليش كفاية ، يظهر نفسك مسدودة ، وأعصابك تعبانه ، والمهم الراحة التامة ، والغذا الخفيف دلوقت ، وحكتب لك على دوا تبقى تشربى منه معلقة شوربة قبل كل أكلة بنصف ساعة .

ولكن ناهد مازالت صامتة تائهة البال ، فالتفت مراد إلى عمه قائلا :

ـــ معلهش ياعمى ، نقدر نسيبها تستريح شوية ، ونروح إحنا نقعد هناك .

وفى غرفة الجلوس تطلع طلعت افندى إلى ابن أخيه

يستزيده بياناً عن حالة ابنته إذ كان يشعر أنه يخفى عنه أمراً.

ـــ إيه يامراد أنا شايفك مشغول على ناهد ! ؟

ـــ والله ياعمى أنا رأيى ان ناهد عندها إجهاد عصبى شديد ، لأنى لاحظت أن وجهها شاحب جدا ، وعينيها مقرحة من البكاء ، وده يدل على انفعال شديد .

ـــ عجيبة يا مراد ؟ !

ـــ وعلى ذلك أنا أرجح أنها لابد مشغولة الفكر جداً من ناحية مسألة خاصة ، فما بتنامش كفاية ، وطبعاً ربما حضرتك عارف شيء عن هذه المسألة

ـــ أبدا يابنى ، أنا فى الحقيقة شايفها مهمومة جدا فما أردتش أفاتحها فى حاجة ، خوفاً من زيادة همها

ـــ بالعكس ياعمى لازم تتكلم معاها وتعرف الأسباب بالضبط ، فربما تكون مسألة مش صغيرة ، والمشاغل النفسية من أصعب المؤثرات على الصحة ، وفى كثير من الأحيان يصعب على الدكتور تشخيص المرض إذا كان السبب نفسانى . .

وبعد برهة انصرف الدكتور وعاد طلعت افندى الى غرفة ناهد فوجدها نائمة .

لقد كان سرور طلعت افندى عظيما حين رأى ناهد تفيق قليلا فى صباح اليوم التالى ، وتخرج من غرفتها الى حديقة البيت لتجلس فى أشعة شمس الصباح ، وتسلل الوالد حتى دنا من مقعدها دون أن تحس هى بذلك فأخفى عينيها بكفيه وسكت لتجيب ، ولكنها لم تمهله إذ قالت فى فتور

ـــ بابا

وأجاب أبوها فى صوت مبتهج :

ـــ صباح الخير يا نونا ، انشالله تكونى كده فقتى ورقتى !

ـــ الحمد لله يا بابا

ـــ طبعا كنت واخدة بالك مين اللى زارنا امبارح وجه سلم عليك فى أوضتك ؟

ـــ آ ، الدكتور مراد ابن عمى ؟

ـــ يا مكارة ! ، أمال كنتى سارحة بعقلك فين ، وما كنتيش بتردى عليه كويس ؟

ـــ مفيش حاجة يا بابا

ـــ بقى ياستى أنا عندى حتة مفاجأة علشانك ، لكن

ظريفة أوى ، بس قبل ما أقولها لك ، عاوزك تعديني انك تصرحي لي عن سبب زعلك وحزنك بهذا الشكل الفظيع ، أنا أبوك يا بنتي ، ولازم نقول لبعض على كل حاجة ، مش كده ؟ !

وتلهفت ناهد إلى سماع هذه المفاجأة الظريفة ، ولاح في أفق مخيلتها وجه أبلة فتحية الصبوح المحبوب .. ولم ينتظر الأب سماع إجابة ابنته بل قال :

— إمبارح مراد فاتحني في أمر زواجه !

وصبر ليرى مدى تأثير هذا التصريح على ابنته فلم تبد على وجهها أية عاطفة

— عاوز يتجوزك يا نونا ! !

— يتجوزني أنا ؟

قالت ذلك والانزعاج يبدو واضحا في نبرات صوتها.

— أيوه ! ، طبعا إنتي لازم تكوني مبسوطة وسعيدة، مراد ابن عمك ، من أحسن الشبان تربية وأخلاقا !

— لا يا با با ، أنا مش عاوزه أتجوز !

— مش عاوزة تتجوزي ؟ ! غريبة ، إزاي مش عاوزة ؟ ! يعني مش عاوزة ليه ؟ ؟

— مش قادره أتكلم دلوقت يا بابا ، أنا أعصابى تعبانه خالص ، اسمح لى أدخل استريح شويه

ولكن هذه الاجابة الفاترة أغضبت طلعت افندى فكاد ينتهرها ويصيح فى وجهها ، ولكن حبه لها غلب عليه فتركها تنصرف فى سكون

وأغلقت ناهد باب غرفتها ثم انكفأت على السرير تبكى من جديد ، وبعد برهة عادت الى منضدة صغيرة فى ركن الحجرة فأخرجت من قطرها كراسة تحوى أوراقا للخطابات ، وقلما للكتابة ، وجلست تفكر لحظة ثم خطت على الورقة الأولى بضع كلمات ، ثم مزقتها وأردفتها بأخرى وثالثة . ثم أعادت الكراسة والقلم الى القطر ، وعادت الى الفراش تنتحب ..

***

وفى عصر اليوم التالى دق جرس التليفون فى مكتب الدكتور مراد فأسرع بتناوله .

— أفندم !

— . . .

— آ ، عمى ، نعم ياعمى ، انشاالله تكون ناهد أحسن النهاردة !

. . . . . .

ـــ إهيه !! حرارتها ٤٠ ! يا سلام ! ، وما بتتكلمش كمان ، طيب أنا جى حالا ، سلام عليكم .

وعند ما دخل الدكتور مراد حجرة ناهد وجد عمه وسعاد والخادمة فى أشد حالات الاضطراب والوجوم، والأب يتناول كمادات الخل من مبروكة فيضعها على جبهة ابنته ، التى تئن أنات طويلة بين آونة وأخرى .

ألقى الدكتور تحية خافتة على عمه ثم أسرع الى الفراش وأخرج من حقيبته مقياس الحرارة فوضعه بين شفتى ناهد وهى لا تبدى حراكا ، وأشار الى مبروكة لتذهب فتغلى أدوات المحقن فى الماء

كان النبض مضطربا سريعا ، والوجه متجهما محتقنا ، والشفتان منفرجتين

ـــ فيه حاجة يا عمى أثرت عليها النهارده ؟

ـــ ما فيش حاجة يا مراد ، أنا والله غلبت فى البنت دى ، أستغفر الله العظيم ، الصبح كانت رايقة شوية وقعدت فى الفرندة ، فقعدت معاها عشان أفاتحها فى بعض الحديث ، وكنت أفتكر أنها يمكن تفرفش ، ولكن ..

وصمت طلعت افندى برهة فتساءل مراد :

ـــ ولكن إيه ياعمى ؟

ـــ معلهش يابنى! بعدين اقولك، ده مش مهم دلوقت !

ـــ آ! لازم رفضت اقتراحى بتاع امبارح ، طيب خلينا هنا

وكانت مبروكة قد جاءت بأدوات المحقن فأعدها الدكتور واقترب من الفراش هامسا

ـــ ناهد . . ناهد ! . ناهد !!

ولكنها لم تجب ، وتبادل الواقفون نظرات القلق ، وخاصة عند ما لمس الأب يد ابنته فوجدها تكاد تلتهب من شدة السخونة ، وأنفاسها تتردد فى سرعة واضطراب.

ـــ أرجوك يامراد تعمل حاجة ! ـ اديها حقنة ولا أى شىء !

ـــ متخافش ياعمى ، ده دور حمى شديد شوية ، ولكن حيزول بسرعة

وعند ذلك سمع صوت خافت يخرج من بين شفتى ناهد ، فانكب الكل نحو الفراش يرون ماذا تطلب ، ولكنها لم تطلب شيئا بل كانت تهذى من فرط الحمى . .

كانت تقول « أبلة . . أبلة . . بتحبينى يا أبله . . زى . . ما بحبك . . لا . . لا . . يا سوسن . . أنا بحب أبلة . . أبلة فتحية . . » ثم عادت الى غيبوبتها

وهنا اعترت الدهشة كلا من أبيها وابن عمها . . فمن تكون « أبلة فتحية » ؟ ، ومن تكون « سوسن » ؟ . . ولكن الدكتور قطع حبل السكوت بقوله :

— عمى ! ابعت حد يجيب الدوا ده من الاجزخانة دلوقت !

وأبرز من جيبه محفظته فأخرج منها ورقة كتب عليها اسم الدواء ثم تناول المحقن وعاونه عمه فى افراغه فى ذراع ناهد

***

انتهت الآنسة فتحية وصفى من إلقاء درس التاريخ فى السنة الثالثة ، وعادت الى غرفتها الخاصة تستريح قليلا ساعة الفراغ حتى يحين الدرس التالى ، وما كادت تضع أوراقها على المنضدة حتى سمعت طرقا بالباب ، وكانت هى رشيدة الضابطة وبيدها خطاب ، ولقد دهشت الآنسة حين قلبت الخطاب بين أصابعها بعد انصراف

الضابطة ، وذلك لغرابة الخط عنها ، ولكنها فضته بسرعة فقرأت به ما يلى :

حضرة المربية الفاضلة الآنسة فتحية وصفى

بعد الاحترام والتحية ، أتشرف بكتابة هذا إليك مذكراً حضرتك بالطالبة ناهد طلعت التى فصلت من السنة الرابعة منذ أربعة أيام ، وذلك لسبب لا زلت أجهله ، هذه هى ابنتى ، وهى الآن مريضة ، وقد اعترتها بالأمس حمى شديدة ، وورد اسم حضرتك على لسانها أثناء هذيانها ، قائلة أنها تحبك كثيراً ، وقد نصحنا الطبيب المعالج أن أرجوك التكرم بالحضور لرؤيتها قبل استفحال أمرها ، لعل فى ذلك مخفف عنها

وتفضلى بقبول عظيم الشكر والاحترام

طلعت محمود

وهكذا فهمت الآنسة فتحية أن المسكينة ناهد لم تكن الا جادّة فى عاطفتها ، وجادة الى هذه الدرجة من التعلق والاخلاص ، وأن المرض قد ألم بها منذ فصلها من المدرسة بسبب تلك العاطفة الشاردة

ولذا فقد أسرعت الى المنضدة وحررت مذكرة الى

الناظرة بأنها مضطرة لأمر هام لمغادرة المدرسة بعد انتهاء الدرس التالى ، وستعود مساء اليوم نفسه

***

ولقد كان لاهتمام الدكتور مراد بناهد وسهره بجانبها الى ساعة متأخرة من الليل أثر مباشر فعال فى هدوء حالتها ونجاتها من براثن الحمى، وقضائها ليلتها فى نوم هادىء سليم من الهذيان والأرق ، وقد أصبحت وحرارتها عادية ، وذهنها حاضر ، رغم الذبول الذى لما يزل باديا عليها ، والوهن الذى كان ظاهرا من حركاتها

ولم يغب الدكتور عن بيت عمه أكثر من ست ساعات عاد بعدها ليتناول طعام الغذاء مع عمه ثم ليواصل عنايته بناهد ، التى يحبها ويبتغى اتخاذها شريكة لحياته

وعند ما كان الاثنان يشربان القهوة فى غرفة المريضة ، دخلت مبروكة تهمس لسيدها

— فيه يا سيدى واحدة ست عاوزة تقابل حضرتك،

ودخلتها أودة الجلوس

— طيب

ونهض طلعت افندى شاعرا أن هذه السيدة لابد وأن

تكون الآنسة فتحية ، وبقى الدكتور مراد ينتظر على أحر من الجمر مشاهدة أثر المفاجأة على ناهد حتى تتبدد الشكوك التى ملأته منذ رأى خطيبته حزينة مهمومة ، وسمع من عمه أنها نافرة من الزواج منه غير راغبة فيه

كانت ناهد فى اللحظة التى دخلت فيها مدرستها قد غلبها النعاس ، ولكن الآنسة فتحية التى لم تفطن لذلك أمسكت بيدها وشدت عليها فى حنان قائلة فى صوت رقيق مدلل .

ـــ ناهد !

ودارت ناهد بوجهها ناحية الصوت ، وكانت عيناها ذابلتين ولكنهما أبرقتا عند ماوقعتا على وجه الحبيبة الغائبة

ـــ آه ! أبلة !!

وانتفضت جالسة تريد أن تقبلها ، ولكنها تنبهت الى وجود والدها وابن عمها بالحجرة فكبحت جماح نفسها

ـــ مالك ياناهد ! ، لا بأس عليك ، أنا والله ماعرفتش أبدا إنك تعبانه الا النهارده بس ، فجيت حالا أسأل عليك

وفى هذه الأثناء همس الدكتور فى أذن عمه ، وغادر الاثنان الحجرة

ـــ الناظرة رفدتنى يا أبله عشان الظابطة قالت لها على اللى حصل لياتها

ـــ أنا عارفة كل حاجة يا حبيبتى ، وحاولت كتير أثنيها عن عزمها ، ولكنها كانت بعتت للوزارة جواب فأصبح مستحيل أنها ترجع وتغير رأيها ، ويظهر أن باباك عرف انك لسه عبيطة وبتحبينى فبعت لى جواب قريته من قيمة ساعتين بس ، بيقوللى فيه إنك امبارح المغرب كان عندك حمى شديدة وكنت بتهذى اسمى ، ويظهر أن الدكتور نبيه فنصح والدك يبعت لى آجى ، يمكن لما تشوفينى تسمنى وتتخنى ووشك يحمر تانى!!

وهنا ابتسمت ناهد الابتسامة الأولى منذ تركها المدرسة إلى اليوم، خمسة أيام كلها هم وبكاء ومرض وهذيان

وواصلت المدرسة حديثها قائلة :

ـــ بقى يا حبيبتى ، أنا نصحتك كتير إنك لازم تبعدى الأوهام دى عن مخك ، لأن عاطفتك الشديدة المتفانية دى كلها وهم وخيال، وعاقبتها سيئة زى ما انت شايفه

ولكن ناهد العنيدة قاطعت مدرستها قائلة فى شغف وشوق

— لكن أنا بحبك خالص يا أبلة !

وهنا لم تجد المدرسة بداً من تغيير مجرى الحديث لعل فى ذلك تهدئة لتلك النفس الثائرة

— الدكتور ده يقرب لك يا ناهد ؟ شايفاه كده بيوشوش بابا ك من غير تكليف

— أيوه يا أبله ده يبقى ابن عمى

— ابن عمك ؟ ياه ! كويس أوى !!

— وإيه رأيك يا أبله إنه طلب من بابا من أربع أيام إنه يتجوزنى ، لكن أنا مش عايزه ، أنا بحبك إنت ياأبله!

— إخص عليكى ناهد عبيطة ! دانتى يظهر عقلك قرب يلخبط ، بقى مش عاوزة تتجوزى عشان بتحبينى ! ياختى دانتى بكره تطلبى تتجوزينى أنا ! ياعبيطة دى فرصة كويسة ، ما دام ده ابن عمك ، ومركزه كويس وبيحبك ، خلاص عاوزة إيه أكتر من كده ؟ دنا لو كنت مطرحك ما كنتش أقول لأ أبداً

— مقدرش يا أبلة أحب حد غيرك !

— لا لا ، انت يظهر بتخرفى ! انت حتزعلينى منك خالص ، إسمعى ! أنا وقتى النهارده ضيق ، وعاوزة أفوت

أشترى كام كتاب قبل ما ارجع المدرسة . وإن شاء الله يوم الحد حاجى أزورك ، وأرجو إنى ألاقيك فى أحسن صحة ، ولابسة فستان الخروج علشان تروحى السينما مع خطيبك ، اندهى لى بقى مبروكة عشان استأذن من باباك !

وجاء الوالد بعد برهة وأدهشه ما لاحظ على ابنته من علائم النشاط والسرور ولم يسعه إلا أن يقول :

ــ دهده يا ناهد ، يظهر أن أبلتك جابت لك دوا كويس معاها !

ثم التفت إلى المدرّسة قائلا

ــ أنا أشكر حضرتك جداً على هذا الجميل ، وطبعاً كنت أود أن تنتظرى للعشاء ، فهل تسمحى ؟

ــ متشكرة جداً ! والله أنا لازم أكون فى المدرسة الساعة سبعة يعنى بعد ساعة وربع يا دوب

ــ طيب يا ستى أمرك

وانصرفت الآنسة فتحية ، وفى أثرها طلعت افندى ، وعلى الدرج الخارجى ، التفتت لتلقى عليه تحية أخيرة ولكنه استوقفها قائلا :

ــ كنت أرجو أن تتكرمى ولو بدقيقتين استوضحك

عن سبب فصل ناهد من المدرسة لأنى فى غاية القلق من ناحيتها، ويهمنى طبعاً إنى أفهم ليه هى دايماً حزينة ومهمومة وربما يكون عندك معلومات عن الموضوع

ـــ مافيش مانع بس مش عاوزه أتأخر أكتر من ربع ساعة

ـــ متشكر أوى، اتفضلى إذا سمحت فى أودة الجلوس.

ووقف الدكتور مراد محييا فى أدب عند ما دخل عليه الاثنان، والتفت عمه إلى المدرسة مقدماً بقوله:

ـــ الدكتور مراد ابن المرحوم أخويا

ـــ تشرفنا

ـــ حضرة الآنسة فتحية، اللى كان لك الفضل فى فكرة إرسال الجواب اليها

ـــ أهلا وسهلا

وواصل طلعت افندى حديثه للآنسة

ـــ مراد لاحظ ان ناهد بتهذى باسم حضرتك. فاستنتج أنها لابد تتمنى تشوفك مادامت بتحبك زى ما كانت بتقول، وهو اللى أشار على بضرورة رجائك فى الحضور، وكانت فكرة مثمرة جداً

— والله يمكنى أن أسرح لكم أن ناهد أصبح لها عندى منزلة الأخت العزيزة فى قلبى ، ولو أنى متأسفة جداً على خروجها من المدرسة بسبب محاولتها إظهار حبها لى ، لأن الناظرة قاسية جداً ، وكان من سوء حظ ناهد إنها تضرب بها المثل لباقى الطالبات ، ففصلتها نهائياً عشان تدفع البنات إلى البعد عن هذا التفكير الخطير ، والحقيقة إن المسألة دى عقدة من الصعب حلها فالعاطفة عند بعض البنات الشريفات النفس ، تشرد بهم إلى التفانى فى حب زميلة أو مدرسة زى ما حصل مع ناهد ، وطبيعى أن هذا الحب منافى لسنة الطبيعة ونهايته الفشل المحتم ، ولكن ناهد مش عايزة تفهم كده أبداً

— ليه ؟ حضرتك قلتى لها حاجة النهاردة ؟

— طبعاً يا طلعت افندى ، لأنها صرحت لى أن الدكتور خطبها من حضرتك ، ولكن هى مش عاوزه تتجوزه لأنها بتحبنى أنا خالص ! !

وضحك الوالد والخطيب على هذا التعليل الغريب ، وكان السرور يبدو عليهما جليا بعد أن تبددت غيوم الشك التى ملأت نفس الأب عن ابنته ، والخطيب عن خطيبته

ووجد الدكتور الظرف مناسباً للدخول فى الحديث فقال :

— بقى حضرتك منافسة لى فى هذا الميدان ؟!

— إذا كان على أنا ، فأنا منسحبة من الميدان من الآن ، ولكن أنا قلقة على ناهد لأن الظاهر أن عواطفها من النوع الراسخ الثابت ، فلا يمكن زعزعته إلا بمجهود وخصوصاً فى الوقت ده ، وهى قاعدة لوحدها فى البيت وبتفكر دائماً

وساد السكون لحظة ، والكل ينظر إلى أرض الحجرة يفكر فى حل لهذه المشكلة المعقدة ، وأخيراً قال طلعت افندى

— يعنى إيه ؟ يعنى مافيش طريقة ولا إيه ؟!!

— المهم فى الظرف الناشىء عن خطوبة الدكتور لناهد ، إن عواطفها ترجع لمجراها الطبيعى علشان يمكنه إنه يجد فيها شريكة محبة مخلصة ، والانقلاب الفجائى ده عاوز مجهود جرىء ، وأنا خطر لى دلوقتى بس حل ربما يكون متنافر شويه مع التقاليد ، ولكن نتيجته على ما أعتقد مؤكدة ، وهى أن ناهد حتكرهنى خالص فجأة ، وده هو اللى بنتمناه كلنا

— وإيه الحل ده من فضلك يا أستاذة ؟

وتمهلت الآنسة فتحية لحظة لتستكمل فى مخيلتها صورة هذا الحل الجرىء ثم قالت :

— من المسلم به أن الغيرة من غرائز الجنس بتاعنا ، وإثارة الغيرة فى قلب ناهد من نحوى هى أنجع دواء، وأنا أظن أن هناك طريقة معقولة وسريعة لها هذه النتيجة ، بس أرجوكم ما تسيئوش الظن بها ، بأى أنا وعدت ناهد إنى حزورها بعد ثلاثة أيام فما رأيكم إننا نسبك عليها حيلة، تمثيلية طبعاً ، وهى أن الدكتور يعرفنى من زمان ، وإنه لما شافنى النهارده هنا . وكانت ناهد ترفض الزواج به ، وكان عاوز شريكة لحياته ، فانه فضل أخيراً أن يخطبنى أنا وهذا مجرد خداع كله بالطبع ، وتقدر يا طلعت افندى تثير فى نفسها عوامل الحقد والغيرة من نحوى ، حتى تنطلى عليها الحيلة ، فتكرهنى جداً ، وهو المطلوب ، فما رأيكم فى هذا الحل ؟

وتبادل الدكتور وعمه نظرات الدهشة ثم قال الأول :

— الفكرة حسنة فى حد ذاتها ، ولكن أخاف أن

حب ناهد لحضرتك يطغى على كل شيء وبعدين يكون الموقف إزاى !

ولكن عمه قاطعه قائلا :

— بس سيبونى أنا أسبك الحيلة عليها كويس ، والحقيقة يا آنسة أنا عاجز عن التعبير عن شكرى للاهتمام اللى أبديتيه بناهد بهذا الشكل

— والله أنا ما دفعنى إلى التفكير فى مثل هذه الحيلة إلا إعزازى لناهد وعدم ارتياحى لحالتها ، ومن جهة أخرى .غبتى فى تحويل عواطفها إلى المجرى الطبيعى ، فتحب خطيبها وماتشعرش بشوق لحياة المدرسة من جديد وبالطبع سيكون من السهل تدبير الباقى

وصمتت المدرسة برهة ثم عادت تقول :

— بس أوعى تنسى تعزمنى فى فرح الدكتور وناهد يا طلعت افندى !

* * *

فى يوم الأحد التالى دهش طلعت افندى إذ رأى ناهد تبادر إلى ارتداء أجمل ثيابها وتبدو مبتهجة فرحة ، ثم تتخذ مقعداً فى الحديقة قرب مدخل البيت ، فى انتظار

حبيبتها الآنسة فتحية !! ، ولم يكن حتى هذه اللحظة قد فاتحها فى أمر خطيبة ابن عمها الجديدة !

ألقى عليها التحية ثم جلس قبالتها ، وبعد قليل قال :

ـــ يعنى النهارده كده متر تبة أوى الازم عندك ضيوف !

ـــ أيوه يا بابا ، أبلة فتحية حتزورنى دلوقت !

ـــ بتقولى مين ؟

ـــ أبلة فتحية !

ـــ المدرّسة بتاعتك ؟ اللى بتحبيها مش كده؟ واللى عشان خاطر عيونها خرجت من المدرسة مش كده !

ـــ مين قال لك الكلام ده يا بابا ؟

ـــ يا بنتى انت لسه صغيرة ، ومتعرفيش ازاى الدنيا مليانه خداع !

ـــ ليه يا بابا الكلام ده ؟!

ـــ أبلتك فتحية دى اللى كانت السبب فى قطع تعليمك ومرضك وهمك ، كانت هى السبب برضه فى اختطاف سعادتك وهنائك !!

ـــ مش فاهمة حاجه يا بابا ! أنا بحب أبلة فتحية وهى بتحبنى

ـــ انت بتحبيها دا يمكن معقول ، لكن إنها بتحبك فمجرد خداع ونفاق ، زى شغل التعلب بالضبط !!

ـــ ازاى بأى ؟!!

ـــ تعرفى يا بنتى ان الدكتور كان عندنا يوم الاثنين بيسلم علىّ بعد ما جه من السفر ، واتكلم معايا فى مسألة جوازك ، ووعدته إنى لازم أسألك الأول ، ولما أخذت رأيك قلتى لى انك مش عاوزه تتجوزى أبداً ، فزعل خالص واتأثر ، ولما كان هنا يوم الخميس وجت المدرّسة دخلت عندنا فى أودة الجلوس بعد ما خرجت من عندك، اتضح أنها كانت تعرف الدكتور من ثلاث سنين ، لأنه كان بيروح بيت سيد بك عبد الله لما كان عيان ، وحضرتها يا ستى تبقى بنت أخت سيد بك ، وأول ماشافت مراد وسلمت عليه بصت له بصة توبيخ وقالت له قدامى «اخص عليك يامراد بقى بعد المعرفة الطويلة دى تنسانى مرة واحدة كده ؟» ومارضيوش يقولوا حاجة غير كده قدامى، وبعدين تعرفى حصل إيه بعد ما خرجت وخرج الدكتور!؟ ـــ حزرى كده ؟

ـــ حصل إيه يا بابا ؟

ـــ سمعت ياستى ان مراد خطب ست فتحية بتاعتك وربما يعملوا حفلة قريباً علشان يعلنوا الخطبة أو يكتبوا الكتاب !! إيه رأيك بقى فى المقلب ده اللى عملته الست حبيبتك ؟!! . . .

ـــ شىء غريب يا بابا ؟!

ولم تتسع الظروف لطلعت افندى أكثر من ذلك لاتمام الخدعة إذ قرع جرس الباب الخارجى ، ولم تكن القادمة إلا الآنسة فتحية ، مرتدية ثوباً سماوياً بديعاً تبدو فيه جميلة فتانة ، وعلى ثغرها ابتسامة لم يفهم معناها سوى طلعت افندى الذى حنا رأسه نحو ناهد كأنه يقول « الحيلة تنطلى ! »

ـــ سعيدة يا ناهد ، إزيك النهارده إن شاءالله تكونى بقيت عال !

ولكن عينى ناهد لم ترتفعا عن الأرض وأجابت فى فتور :

ـــ الحمد لله أحسن شويه

ـــ هو الدكتور مراد لسه ماجاش يا طلعت افندى

ـــ لا يافندم لسه !

وانبرت ناهد فى هذه اللحظة تقول فى لهجة ذات معنى:

ـــ أنا كنت فاكرة إنه لازم ييجى مع حضرتك

ووجدت المدرسة الفرصة سانحة لاتمام الخدعة فقالت مندهشة :

ـــ الله ؟ ! ، هو انتى عرفتى يا ناهد ؟ . طيب مش تباركى لى بأى ؟!

ولكن الغيرة قد بدأت سمومها تسرى فى فؤاد ناهد، وأدركها السأم والسقم من مخاطبتها ، فقالت مفتعلة :

ـــ أنا شاعرة بصداع ! وبدى استريح شوية ، عن إذنكم !

ولم تنتظر إذنا بل أسرعت إلى حجرتها ، أما والدها ومدرستها فقد وقفا يشيعانهـا بنظرات ذاهلة ، فلما غابت عن الأنظار التفت طلعت افندى إلى جليسته قائلا :

ـــ شىء عجيب والله !! دا يظهر ان جنس الستات ده فاهم بعضه أوى !! البنت متأثرة خالص !!

ـــ خلاص اطمئن يا طلعت افندى ، ناهد دلوقت تكرهنى جداً، بعد ما كانت تحبنى جداً، وكل ده علشان نافستها فى خطيبها اللى كانت مش عاوزه تتجوزه، والأمر ده

طبيعى ومنسجم مع غريزة المرأة ، فناهد إحدى البنات اللى بيوجدوا بيننا من وقت لآخر ، ويكونوا متشبعين بالعواطف النبيلة ، فيتطور إعجابهم بأى شخصية من الشخصيات اللى أمامهم إلى حب عميق ، قد يصل إلى درجة خطيره ، ولكن أقل احتكاك بغرائزهم الطبيعية يبرهن بسرعة على أن عشق المرأة للمرأة مصيره الفشل المحقق

ـــ ولكن ما تفتكريش يا أستاذه إن ناهد دلوقت تكره الدكتور كمان ، ومن جهة أخرى بعد ما تفهم سر الخدعة ، ما تظنيش أن حبها لك يرجع أكتر مما كان ؟

ـــ أما من جهة كراهية ناهد فانها منصبّة على أنا بس ، لأنها تعتبرنى سارقة خطيبها ومن جهة عاطفتها نحوى بعد ما تفهم الحيلة ، فستكون عاطفة احترام أكثر منها حب ، وده لن يؤثر على شعورها بالحب والإخلاص نحو خطيبها وزوجها ، ودلوقت تسمح لى حضرتك بالانصراف وإن شاء الله أرجو أن تتم خطبة الدكتور لناهد فى أقرب وقت لتجد ما يشغلها عن التفكير المضنى ، وطبعاً حيكون من السهل على حضرتك وعلى الدكتور

تدبير بقية الحيلة ، مع اختراع أى سبب معقول تقولوه لناهد عن فسخ الخطبة الموهومة بين الدكتور ومدرستها مش كده ؟!

ـــ طبعاً طبعاً ، الله يخليك ياست فتحية ويبارك فيك

ـــ سعيدة بأى يا طلعت افندى

ـــ سعيدة يا أستاذة ! متشكر خالص ، وأرجو أن تهيء لى الظروف فرصة لرد هذا الجميل

* * *

ومضى يومان وطلعت افندى لا يهمل فرصة إلا وانتهزها لصب اللوم على ناهد لرفضها خطوبة ابن عمها ، وعلى مدرستها التى غدرت بها وكانت سبب بؤسها فى المدرسة وخارجها

وفى عصر الأربعاء خرج طلعت افندى إلى خميلة الياسمين فى الحديقة حيث كانت تجلس ناهد وبيدها إحدى مؤلفات المنفلوطى ، ولم يكن فى جعبته غير السهم الأخير

ـــ سعيدة يا نونا !

ـــ سعيدة يا بابا

ـــ انت عرفتى آخر الأخبار ؟

ـــ أخبار إيه يا بابا ؟

ـــ مراد ضرب لى تليفون النهارده ، وبرضه عنده جراءة يعزمنى أنا وانت فى حفلة كتب كتابه بكرة المغرب !!

ـــ بقى اسمع يا بابا ، أنا لا عاوزه أشوف مراد ولا خطيبة مراد ، يا ريتنى كنت سمعت النصايح اللى اتقالت لى ، على كل حال ، إذا كنت حضرتك عاوز تروح بصفتك بدل والده ، اتفضل روح لوحدك !

وفى هذه اللحظة سمع صوت بوق سيارة تقترب من بعيد ، ثم تقف أمام منزل طلعت افندى ، هى سيارة الدكتور مراد الجديدة . يركبها لأول مرة

وعند الباب تصافح الدكتور وعمه فى الخفاء وهمس الأول

ـــ هيه ، إزى الحال يا عمى ؟

ـــ عال أوى ، بس ناهد دلوقت متأثرة خالص من خداع مدرستها ، ومش عارف أد إيه حتزعل منى لما تعرف الحقيقة

ـــ طيب بس يا عمى ! اعمل بقى انك زعلان منى أنا كمان !

وعند الخيلة ، كان طلعت افندى يبدو عليه الكدر ولكن الدكتور خاطب ناهد بقوله :

ـــ إزيك يا ناهد ، على الله تكوني شاعرة بتحسن كبير على الدوا اللى جبتهولك يوم الخميس اللى فات

ـــ الحمد لله أحسن !

والتفت إلى عمه قائلا بصوت مسموع :

ـــ تسمح يا عمى تشرفنى بكره إن شاء الله زى ماقلت لحضرتك فى التليفون ، لأنك طبعاً رجل العائلة ، وإذا كانت ناهد تسمح تيجى مع حضرتك يكون شرف عظيم ، وخصوصاً وإن فتحية (وقد نطق بهذه الكلمة بمنتهى الصعوبة) ألحت على كتير إن ناهد لازم تكون موجودة !

وعند ذلك بدت الرزانة والتروى بأكملهما على وجه طلعت وقال وجبينه مقطب

ـــ أنا يابنى معنديش مانع

ـــ متشكر جداً يا عمى ، وإن شاء الله حبعت لكم

العربية بكره الساعة أربعة بعد الظهر عشان تيجو فيها لحد باب البيت ، وعن اذنكم بأى أحسن بدى أشترى شوية حاجات ! ..

* * *

وفى اليوم التـــالى وقفت السيارة أمام منزل طلعت افندى فى الساعة الرابعة بعد الظهر وقرع السائق الجرس وكان الوالد فى الداخل يعمل كل ما فى وسعه لاقناع ابنته بوجوب الذهاب معه ، وإلا فشلت المؤامرة كلها ، قائلا لها :

ـــ يعنى عاوزه البتاعة العجوزة دى تفرح فينا ؟ وكمان نظهر قدامها بمظهر الضعف ! ؟ متبقيش عبيطة بأى ، دانت حقك تتزينى على الآخر عشان تبقى زى الشمس وتكسفى بنورك حضرة الخطيبة ، تعرفى يا ناهد لو كنت أنا مطرحك كنت أروح البس الفستان السواريه اللى عملتيه عشان فرح بنت على بك ، وتحطى الفورير على كتفك وتجى معايا ، بس أوامك ياحبيبتى علشان العربية على الباب ، يللا أحسن أزعل منك أمال !

ونجحت المحاولة وانطلقت السيارة تحمل الوالد المسرور وابنته المهمومة ، إلى بيت الدكتور مراد

وكانت الزينات فى أبدع أشكالها ، فقد اكتسى البيت جدراناً وأبواباً بالأزهار وعناقيد المصابيح الكهربائية الملونة، وزين المدخل بتاج جميل من المصابيح، لم يبهر الأبصار بعد ، إذ لم يزل الوقت نهاراً

ولقد دهشت ناهد حين استقبلتها والدة الدكتور مراد ومن هناك من المدعوات بمنتهى الحفاوة والزغاريد وحارت فى أمر هذا الاستقبال ولم يمكنها تعليله

وتلفتت ناهد هنا وهناك لعلها تعثر على خطيبة ابن عمها ، فلم تجد لها أثرا ، فآثرت السكوت ، وهى تقول فى نفسها « ربما لم تحضر بعد ! »

ومرت الدقائق تتلوها الدقائق والخطيبة الموهومة لم تشرف بعد

وكان الذى يحدث فى البهو الخارجى يسترعى الأنظار، فقد جلس المأذون وسط جمع من المدعوين يمهد للعقد بما تيسر من القرآن والحديث ثم دنت منه يدان يغطيهما منديل أبيض ، ولم تكونا غير يد الدكتور الخطيب ويد

عمه باعتباره وكيلا عن ابنته ناهد. وتم الكتاب وصارت ناهد عروس مراد، ومراد زوج ناهد. ودارت أكواب عصير البرتقال، ووقف الكل يحيون الخطيب ويهنئونه، ويهنئون الوالد ويحيونه

ولم تفق ناهد من غفلة التفكير إلا لتجد نفسها وسط المدعوات جميعاً يزغردن ثم يقبلن عليها مهنئات مقبلات، وكان الذهول الذى ألم بها هو الذى جعلها تسكت ولا تتكلم، وأخيراً اقتربت منها والدة الدكتور فقبلتها بحنان قائلة:

— مبروك يا بنتى وألف مبروك، وأتمنى لك كل سعادة وهناء مع مراد

وفتحت ناهد شفتيها لتستفسر عن تلك المظاهر الغريبة، ولكن مراد دخل فدوت الزغاريد، وتقدم نحو العروس فتناول يدها وطبع عليها قبلة طويلة اهتزت لها جوانبها، وأخيراً تحرك لسانها فقالت فى صوت خافت:

— إيه ده يا مراد؟! انت بتتجوزنى أنا؟

— طيب وماله يا ستى؟ زعلانة ولا إيه؟ أنا بتجوزك

انت علشان ماأحبش إلا أنت، وأحلامى وآمالى لا تتحقق إلا معاكى انتى !!

ـــ وأبلة فتحية ؟

ـــ الله ! ؟ ده صحيح !! . معلهش بقى ، ما هو الغايب مالوش نايب !!!

obeikandl.com

فهرس

	صفحة
الاهداء	٣
كلمة المؤلف	٤
عابد الخيال	٥
قيام الساعة	١٧
مصرع أخي	٤٨
ثورة في سجن	٥٦
إبليس والشيخ سيف	٦٩
شرود العاطفة	٨٩

تنبيه : الأسماء الواردة في هذه القصص لا علاقة لها البتة بأفراد الحياة الحقيقيين ، وكل تشابه من هذا النوع لا يسأل عنه المؤلف

obeikandl.com

يصدر قريبا للمؤلف :

قوس قزح

من أمتع ما يقرأ فترقبوه

obeikandl.com